الإمامة والولاية في الإسلام

آية الله العظمى السيد علي الخامنئي (دام ظله)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بإمكاننا أن نختزل الإسلام كله في (الولاء) و (البراءة) والأحكام الشرعية المترتبة على (الولاء) و (البراءة)؛ فإن دين الله تعالى في أصوله وأحكامه لا يزيد على أن يكون عملية ارتباط للإنسان بالله تعالى، وفي امتداد الارتباط بالله، الارتباط برسله وأنبيائه وأوليائه ثم بالمسلمين عامة ابتداءً من الارتباط بالأسرة في الدائرة الصغرى إلى الارتباط بالأهل والمعارف والأرحام في دائرة أوسع ثم الارتباط بالأمة الإسلامية في الدائرة الكبرى. ولهذه الصلات (الصلة بالله وبرسوله وأولياء الأمر وبالمسلمين) أحكام وتشريعات تخص كل واحد واحد من هذه النشاطات على الصعيد التشريعي، وتعليمات وتوصيات في كيفية التعامل على الصعيد الأخلاقي والتوجيهي.

وهذا هو أحد وجهي المسألة (الولاء).

والوجه الآخر للمسألة هو (البراءة) والمقاطعة لأعداء الله ورسوله وأوليائه والأمة. ولهذه القطيعة كذلك أحكام وتشريعات في الحرب والسلم والمهادنة كما كان للارتباط والاتصال بالله أحكام وتشريعات وتوجيهات.

وإذا أمعنا النظر في هذه المساحة الواسعة التي يحتلها الولاء والبراءة من حياة الإنسان سواء في مجال المواصلة (الولاء) أو المفاصلة (البراءة) أو في أحكام هذه المواصلة والمفاصلة، نجد أن هذه المساحة الكبرى تستوعب دين الله جميعاً ولا يبقى شيء من دين الله خارج هذه المساحة[1]. إذن فليس من المبالغة في شيء إذا قلنا أن الولاء والبراءة يختزلان الإسلام كله على سعته وشموليته لحياة الإنسان، هذا في المجال النظري والتشريعي.

وأما على الصعيد السياسي فإن أدق الأقوال وأعمق النظريات وأكثرها واقعية وأصالة هو أن الولاء والبراءة هما اللذان يرسمان الخارطة السياسية على وجه الأرض، ويحددان المحاور السياسية الحاكمة في حياة الإنسان.

فليست الجبال والبحار والأنهار هي التي ترسم الخارطة السياسية، وإنما الولاء والبراءة هما اللذان يرسمان هذه الخارطة ويحددان المحاور القائمة في حياة الإنسان؛ فالإسلام محور للولاء على وجه الأرض يستقطب المسلمين جميعاً ويتجاوز الحدود الجغرافية والقومية والعرقية ويستقطب كل القلوب التي تنبض بحب الله ورسوله وأولياءه من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب؛ من جزر أندونيسيا وماليزيا والصين والتبت في أقصى الشرق إلى المسلمين الحفاة السود في أقصى الغرب في غابات وصحاري أفريقيا.

إن كارل ماركس يخطأ كثيراً؛ إذ يتصور أن جوهر الصراع في التاريخ هو تضارب الطبقات في المجتمع وأن الصراع بين الطبقة المستثمرة (بالكسر) والمستثمرة (بالفتح) هو أساس حركة التاريخ وجوهر الصراع والقتال والصدام في حياة الإنسان. إن اختلاف الولاءات هو أساس حركة التاريخ وجوهر الصراع على وجه الأرض وعلى امتداد التاريخ. لقد كانت تقول زوجة كارل ماركس أن كارل ماركس كان يمشي في شوارع المانيا وينظر إلى حياة الناس وصراعهم ويقول طبقتان، أي أن الناس في التاريخ وفي المدن وفي القرى يشكلون طبقتين متباينتين مستثمرة ومستثمرة، وهذا الإختلاف الطبقي هو سر الصراع وحركة التاريخ. أما نحن فعندما نتحرك في المجتمع وعلى التاريخ فلا نرى ـ بما أرانا الله من الهدى وأعطانا من البصيرة ـ غير ولائين وبرائتين؛ الولاء لله ولرسوله والبراءة من أعدائنا والولاءات الأخرى للطاغوت {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}. والصراع القائم في التاريخ وحركة التاريخ إنما يتمّان حول هذا المحور في الأساس وإن كان يتخذ أحياناً في انشعاباته وآثاره صيغاً اقتصادية أو غيرها من الأسباب الثانوية للصراع والمعركة القائمة اليوم بين الجمهورية الإسلامية من طرف وأعدائها من طرف آخر بما يمتلكه هؤلاء من إمكانات وقدرات وما تتلقاه الجمهورية الإسلامية من عطف ودعم من قبل المسلمين المستضعفين في كل أرجاء الأرض في حقيقة أمره لمن يمعن النظر في هذه المعركة الحاسمة.. صراع بين

محوري الولاء والبراءة؛ الولاء لله ولرسوله من طرف والولاء للطاغوت من طرف آخر، وأي تفسير آخر لهذه المعركة القاسية التي امتدت وطالت وقست غير هذا التفسير في رأينا نظرة سطحية إلى الأحداث تفقد العمق والأصالة والفهم الإسلامي لحركة الإنسان على وجه الأرض وفي التاريخ.

وللأهمية الكبرى التي يملكها محور الولاء لله ولرسوله ولدوره الفعال في تجميع المسلمين واستقطابهم وتشكيل كتلة واحدة وصف واحد منهم في مقابل أئمة وأنظمة الكفر، نرى أن محاور الاستكبار العالمي تحاول وتسعى إلى تفتيت هذا المحور الواحد (الولاء لله) وإضعافه ليفقد قوته وفاعليته ودوره في حياة الإنسان. ومن أساليب التآمر على محور (الولاء لله) هو طرح بدائل حضارية للولاء والبراءة في مقابل (الولاء لله والبراءة من أعدائه)، وهذه البدائل عديدة منها الولاء للقومية، والولاء للأرض والتراب (الوطن)، ومنها الولاء للدم والعرق، ومنها الولاء للأوثان والأصنام الفكرية والبشرية. وأخطر هذه البدائل الحضارية في حياتنا الولاء للقوم والدم والعرق، وقد استطاع الاستكبار أن يعمق حالة الإرتباط بالقوم والدم والعرق في حياة المسلمين خلال الفترة التاريخية التي انحسر الإسلام فيها عن حياة المسلمين، واستطاع أن يمزق المسلمين إلى قوميات متعددة عربية وفارسية وتركية وكردية، ويربطهم عبر الإسلام العظيم بالحضارات البائدة الفرعونية والأكدية والآشورية والكلدانية والساسانية، واستعان لتحقيق هذه المهمة بالتاريخ والشعر والنثر والفن والفلسفة وحتى بأجهزة التربية والتعليم والإعلام وبأسماء الشوارع والميادين.

****

واليوم حيث بدأ المسلمون يعودون إلى الإسلام من جديد ويستعيدون في ظل الإسلام كيانهم وأصالتهم وجذورهم وعمقهم، وحيث منَّ الله عليهم بانتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني (قدس سره) وقيام الدولة الإسلامية الأم في هذه الرقعة المباركة من الأرض، أقول أن أهم ما يجب علينا أن نعمقه اليوم في أحاسيس المسلمين ومشاعرهم وقلوبهم هو الإحساس بالولاء لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وللأمة الإسلامية والبراءة من أعدائهم من الشرق والغرب ومن أئمة الكفر وأنظمة الكفر أينما كانوا، ولا نستطيع أن نخوض المواجهة والصراع الحضاري الحتمي بين الإسلام والكفر وننتصر بإذن الله ما لم نعمق حالة الولاء والبراءة في نفوس أمتنا وما لم نبلور وحدة الولاء ضمن صيغ عملية تتجسد في وحدة الصف ووحدة الكلمة ووحدة الموقف فيما بين المسلمين في كل مكان.

وأمامنا الآن فرصة طيبة لكي نقرأ ونفكر في الولاء والبراءة من خلال تصورات وأفكار قائد الجمهورية الإسلامية سماحة آية الله السيد علي الخامنئي (حفظه الله)، فإن للولاء والبراءة معاناة وثقل وضريبة. وقائد أول جمهورية إسلامية تقوم في العالم الإسلامي اليوم بعد فترة السبات الطويلة لابد أن يكون قد تحمل الكثير من هذه المعاناة والجهد ودفع الكثير من ضريبة العمل سواء قبل قيام الدولة الإسلامية في مرحلة تكوّن الثورة أو بعدها، وعليه فإن حديث السيد الخامنئي عن الولاء والبراءة لا يكون حديثاً تنظيرياً بعيداً عن المعاناة والهموم والآلام والآمال والطموحات ومشاكل ومتاعب ذات الشوكة.

ونحن إذ نقرأ هذه الرسالة القيمة عن الولاء والبراءة لقائد الجمهورية الإسلامية، نلتقي بأفكار وآراء وتصورات تكونت في ضوء القرآن والسنة ومن خلال الجهد والمعاناة وداخل السجون والزنزانات وعلى صعيد مواجهة الكفر العالمي للإسلام وللأمة الإسلامية، وبذلك فإن هذه الرسالة سوف تشكل، إنشاء الله، عاملاً مؤثراً في بلورة مسألة الولاء والبراءة في حياتنا السياسية والحركية وجهادنا وقتالنا في الوقت الحاضر. وجزى الله تعالى فضيلة السيد المترجم خيراً حيث يسر لقراء العربية فرصة الالتقاء بأفكار وتصورات قائد الجمهورية الإسلامية عن الولاء والبراءة بصورة مباشرة؛ بهذه الصورة التي ترونها بين أيديكم. نسأل الله تعالى أن يؤيد هذه الدولة الفتية المباركة وينصرها وينصر أمامها والقائمين بها والأمة العاملة والمضحية في سبيلها، أنه سميع مجيب قريب.

قم المقدسة

في 4 شوال 1406

محمد مهدي الأصفي

---

[1] اللهم إلا ما يتعلق بعلاقة الإنسان بنفسه وأحكام هذه العلاقة، وهذه العلاقة وأحكامها تدخل في دائرة الولاء أيضاً بمعناها الشامل، ولا مجال هنا لتفصيل الكلام.

المقالة الأولى

معنى الولاية

يدور بحثنا حول مسألة الولاية، وقليلاً ما تطرح الولاية بمعناها الذي نستنبطه من القرآن الكريم. ومن الطبيعي أن لا تكون كلمة الولاية غريبة على الأسماع الشيعية، بل أنها مأنوسة بشكل كامل بهذه الكلمة، حيث أننا نذكر الولاية مطعمة بالقدسية ومفعمة بالإحترام في دعائنا وابتهالنا إلى الله، وفي رواياتنا وأحاديثنا الفكرية العامة الرائجة. ونحن كشيعة ندين بالولاية وندعو لله سبحانه أن يحيينا ويتوفانا عليها.

أُريد أَن أتحدث عن الولاية من أساسها وعمقها البعيد. ومن الطبيعي أَن يصل بي الحديث إلى ولاية علي بن أبي طالب، ولكن حديثي الآن في المراحل السابقة على ذلك، وما نبتغيه هو استخلاص واستنباط معنى الولاية من الآيات القرآنية، وستجدون علو هذا المعنى وجدته وتطوره، وستجدون أيضاً أن الأمة أو الجماعة التي تتبع منهجاً معيناً وتعتقد بعقيدة ما تعيش التيه والضياع ما لم تكن موالية. وفي ظلال هذا البحث ستطّلعون بصورة واضحة على السبب في أن صلاة الموالي هي الصلاة الحقيقية، وصيامه هو الصيام المطلوب، وعبادته هي العبادة التي فرضها الله. وسيسهل عليكم من خلال هذا البحث معرفة السر في أَن الأمة والمجتمع مع الولاية يكون لائقاً ومستحقاً للطف الله ورحمته وعنايته. ونلخص ما مضى بالقول بأننا سنفهم في ظل هذا البحث ما تعنيه أحاديث الولاية.

ومن هذه الأحاديث الحديث المعروف والذي أكرر بعض فقراته في مواطن مختلفة (لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه وتكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله جلَّ وعزَّ حق في ثوابه)[1]. وسوف تستوعبون أبعاد هذا البحث بعد التدقيق فيه وفي نتائِجِه المستخلصة من الآيات القرآنية.

ومسألة الولاية تتصل بمسألة النبوة إتصالاً وثيقاً وتتبعها من غير أن تنفك عنها، وهي في الحقيقة خاتمة لبحث النبوة، وملحق لها، وتتمة لنتائجها.

وسوف نفهم من خلال عرضنا الحاضر أن النبوة تبقى ناقصة من غير ولاية.

ولهذا فنحن ملزمون بالبحث بصورة مختصرة عن النبوة.. وفي هذا البحث المختصر نتعرض للقضايا الكلية والعامة في مسألة النبوة، حتى نجعل هذا البحث مدخلاً لدراسة مسألة الولاية. ولا أنسى أن أقول هنا أن عرض هذه المسألة شاق وصعب صعوبة بالغة، وأشق من ذلك بيانها وعرضها كما هي؛ ذلك لرسوخ الكثير من المفاهيم والاعتقادات الواهية الهزيلة وغير المنطقية في أذهان العامة من الناس عن الولاية بدرجة لا تسمح بفهم ما تريد أن تبيّنه عن معنى الولاية المطابق مع القرآن والسنة، وستواجه عندئذ أحد اشكالين؛ إما أن تختلط عليك الصورة بما يقوله عامة الناس، وإما أن يبدو هذا المعنى غريباً حين مقارنته مع ما في أذهان الناس، ولهذا كان هذا البحث صعباً وشاقاً جداً. ولكني بعد استمداد العون من الله المتعال وبالسعي الجاد آمل أَن أتم هذا البحث في خلال أيام قليلة إنشاء الله تعالى.

لماذا أُرسل النبي (ص) ولماذا جاء؟ من أجل أن تتكامل البشرية، وتتخلق الأمم بأخلاق الله. التكامل البشري وإيصال الناس إلى مكارم الأخلاق هو هدف الرسول (إنما بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق). بُعث النبي لتربية الإنسان وتقويمه، وعلينا أن ننظر في الوسائل والأساليب والطرق التي يسلكها الرسول للوصول إلى تربية الناس وتقويمهم؛ هل يؤسس مدرسة، أو يطرح مذهباً فلسفياً، أو يبني صومعة ومكاناً للعبادة. النبي أسس مصنعاً[2] لإعداد الناس وتربيتهم وصناعتهم وفق المنهج الإلهي {ولتصنع على عيني}.

وكان (ص) يرجح أن يصل إلى هذا الهدف خلال عشر سنوات أو عشرين سنة أو أكثر؛ إذ لم يكن يستهدف تربية إنسان واحد أو اثنين أو ثلاثة أو عشرين فقط، وإنما كان يهدف إلى بناء مصنع يُنتج ويُعد إنساناً كاملاً يحبه الله ورسوله وبصورة تلقائية أتوماتيكية. فما هو هذا المصنع؟ إنه المجتمع والنظام الإسلامي. هنا يَظهر المنعطف الخطير والنقطة الحساسة لأن

الجميع يقولون أن النبي جاء مربّياً ومعلماً يهدف تعليم الناس وتزكيتهم وتربيتهم، والكل يفهم ذلك، ولكن ما ينبغي فهمه بصورة دقيقة هو الطريق إلى هذا الهدف، هل يخلو بالأفراد واحداً واحداً ليلقي على مسمعه النداء الحنون المفعم برحمة الله ولطفه؟

والأنبياء لم يؤسسوا مكاتب ومعاهد علمية أو فلسفية لتعليم مجموعة من الرواد، ثم إرسالهم لهداية الناس في أقطار الأرض، بل إن عمل النبي أشد استحكاماً وثباتاً وعمقاً من هذا كله. فماذا يعمل النبي؟ ليس أمامه من سبيل إلا تأسيس وإنشاء ذلك المجتمع الإسلامي الذي يتولى مهمة إنتاج وإعداد الإنسان الكامل.

ماذا نعني بالمجتمع الإسلامي؟ وما هي حقيقته؟

وطبيعي أن هذه المسائل ليست من صميم بحثنا الأول، ولكنها توضح جوانبه.

المجتمع الإسلامي هو تلك الجماعة التي ترجع في حاكميتها إلى الله، فهو مصدر تشريعها وواضع قوانينها؛ فقوانين هذه الجماعة قوانين إلهية وحدود الله هي الجارية، والذي يعين القائد أو يعزله هو الله. فإذا تصورنا المجتمع على شكل هرم كما يشاء بعض علماء الاجتماع فإن الله سبحانه هو قمة الهرم، وقاعدته هي الجماعة المسلمة، والذي يوجد الجماعات والتشكيلات هو دين الله، والقرار الرباني الإلهي هو الذي يحدد وقت الصلح والسلام أو الحرب والقتال.. كما أن دين الله هو الذي يعين الروابط الاجتماعية والاقتصادية، وهو الذي يشكل الحكومة ويحدد الحقوق، وكل شيء على الإطلاق يمر من خلال دين الله وشريعته ورسالته، وعلى الجميع أن يتبعوا المنهج الذي يرسمه دين الله ورسالته.. هذا هو المجتمع الإسلامي.

وعندما جاء الرسول إلى المدينة أسس المجتمع الإسلامي، والله سبحانه هو الحاكم على هذا المجتمع الناشىء، ومن الناحية العملية والتنفيذية كان المنفذ والحاكم الفعلي هو خليفة الله ووليه وهو الرسول، فكان يضع أو ينفذ المقررات الإلهية، وكان المسؤول عن هداية الناس وقيادتهم وإدارتهم. كان كل شيء من الله سبحانه في هذا المجتمع.. فصلاة الجماعة كانت تقام وتعقبها خطبة للرسول أو نداء للقتال، لا فرق بين الإثنين؛ كان الرسول (ص) يقوم إماماً للصلاة في المسجد ثم يرتقي المنبر للموعظة والوصية بالتقوى والتربية وتزكية النفوس. وفي نفس هذا المسجد يُؤتى براية الجهاد ليضعها الرسول بيد أسامة بن زيد أو بيد قائد كفؤ آخر ثم يقول انطلقوا على اسم الله، ثم يصدر أوامره التي تنتهي إلى انتصار المسلمين على أعدائهم. وفي نفس هذا المسجد كان الرسول يقيم الحدود الإلهية ويجريها ويقضي بين الناس ويحل مشاكلهم ويرفع نزاعاتهم.

وكان المسجد هو مكان إدارة الأعمال ودراسة المسائل الاقتصادية.. تجمع الزكاة في المسجد وتوزع منه.. الدرس في المسجد والصلاة والدعاء والعبادة.. كان نشيد القتال يردد فصلاً فصلاً في المسجد، ولا تدرس أمور الثروة والاقتصاد إلا في المسجد، ولم تجد أمور الدنيا والآخرة مكاناً تُتداول فيه غير المسجد، فكلها تشكل كياناً واحداً في وعاء واحد هو بيت الله وتحت قيادة الرسول. هذا هو المجتمع الإسلامي.

إنما جاء الأنبياء لبناء مثل هذا المجتمع، والذي يدخل هذا المجتمع يخرج منه إنساناً كاملاً، وإذا لم يتكامل فهو لا يجد مجالاً يتحرك فيه غير مجال حركة هذا المجتمع، ومن أراد أن يكون منسجماً مع مجتمع الرسول فإن بإمكانه ذلك، بينما لا نجد ذلك في المجتمعات المادية وغير الإلهية؛ فإن الإنسان في المجتمع غير الإسلامي إذا أراد أن يكون فرداً صالحاً فهو لا يستطيع، يريد أن يكون من أهل الإيمان والتقوى لكنه لا يستطيع، لا يريد أن يأخذ الربا ولا يتعاطاه لكنه يجد ذلك صعباً أو غير ميسور، تريد المرأة أن لا تخرج عن حدود الشريعة الإسلامية فتواجه من المجتمع الضغوط التي تدفعها للسير في الاتجاه المعاكس.

وكل الأجواء والدوافع تبعد الإنسان عن ذكر الله؛ فالصور والمعارض، والذهاب والإياب، والمعاملات، والمحاورات تبعد الناس جميعاً عن ذكر الله وتجعل ذكر الله غريباً على النفس الإنسانية. أما في المجتمع الإسلامي فالمسألة معكوسة؛ فإن السوق والمسجد ودوائر الدولة والأصدقاء والأقارب والآباء والشباب وكل من في المجتمع وكل ما فيه، يدعو الإنسان إلى ذكر الله ويجتذبه إلى قدسه ويجعله منسجماً مع ما يريده الله ويوثق الروابط الإنسانية بالله.

كل شيء في المجتمع الإسلامي يبعث على عبودية الله، وهذا بدوره يعد الإنسان العابد لله عبادة حقيقة، ويبعده عن العبودية لغير الله. ولو استدامت حياة المجتمع الإسلامي الذي أسسه الرسول على حالته الأولى مدة خمسين عاماً، ولو كانت القيادة في ذلك المجتمع للرسول، أو لعلي بن أبي طالب الذي عينه الرسول قائداً للناس من بعده، فإن جميع المنافقين يتحولون إلى

مؤمنين واقعيين في هذه الخمسين سنة، أي أن أولئك الذين كانوا ضعاف الإيمان وفي منتصف الطريق والذين يمزجون الحق بالباطل وهم يوماً مع هذا ويوماً مع ذاك، إن هؤلاء يتحولون إلى مؤمنين مخلصين لو كانت القيادة نبوية ثم علوية؛ فالقلوب المنافقة تتحول إلى قلوب ملؤها الإيمان والهدى في مجتمع كالمجتمع الإسلامي الأول لو استمرت به الحياة مدة أطول مما كان ولو كان عمر ذلك المجتمع طويلاً.

فإن أولئك الذين لم تعرف أرواحهم المعاني البعيدة للإيمان سيعرفون الله. والإيمان معرفة رفيعة.. هذا هو مقتضى طبيعة المجتمع الإسلامي، وهذا هو مبتغى الأنبياء وهدفهم، وهذا المجتمع هو المصنع الذي يعد وينتج الإنسان المتكامل، وتخرج من هذا المجتمع مجاميع تعمل بالإسلام في سطحها الظاهر وتؤمن بالإسلام في قلبها وأعماقها وواقعها.

ولهذا الهدف أُرسل النبي، ولمثل هذا الهدف كان يعمل ويدعو، وقد تقدم أن هدفنا البحث عن الولاية من أسسها وأعماقها. عندما جاء النبي برسالته وطرح فكره الإسلامي، وبدأ دعوته، فهل يستطيع إدارة المجتمع لوحده؟ ألا تحتاج الجماعة وتشكيلاتها إلى طائفة من الناس تتولى إدارة الأمور؟ ألا تحتاج الجماعة إلى جنود يدافعون عنها، ويردون كيد الأعداء؟ أليس من الضروري وجود مجموعة من المسلمين تعين النبي في تبليغ رسالته ونشر دعوته؟ طبيعي أن ذلك لازم وضروري، ولابد أن تكون هذه السبل طبيعية غير حاصلة على أساس الإعجاز، والأنبياء يسلكون الطرق الطبيعية في أكثر أعمالهم. جاء النبي ليبني المجتمع المسلم (أي مدرسة التربية)، وهو لإنجاز هذا الهدف يحتاج إلى جماعة متراصة متحدة يشد بعضها بعضاً تؤمن بهذه المدرسة من أعماق قلبها، وتسير بخطىً ثابتة نحو تحقيق هدفها.

كان ضرورياً للنبي من أجل تحقيق هدفه وجود مثل هذه الجماعة، ولهذا كان فاتحة أعماله إيجاد مثل هذه الجماعة المتراصة عن طريق تلاوة الآيات القرآنية والمواعظ الحسنة {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة}[3]، حيث كان القرآن ومواعظ النبي التي تصدر من أعماق قلبه هما السبيل لإنشاء ذلك المجتمع، وكانت كلمات الرسول تصيب هدفها وتدخل أعماق القلوب لتجتذبها اجتذاباً إلى طريق الله ورسالته. كانت بداية أعمال الرسول تجميع المسلمين ليشكلوا [الجماعة الأولى] (والصف الأول) والجبهة التي تقابل جبهة الكفر والشرك. ولو سألنا عن نواة هذه الجبهة، لوجدنا أنها تتألف من المسلمين الثابتين أولي الاعتقاد الراسخ والقلوب القوية من الذين {لا تأخذهم في الله لومة لائم}[4].

وكان على المسلمين في ذلك الحين أن يكونوا كالفولاذ إذا أرادوا لجبهتهم أن تبقى قوية مستقلة عن الجاهلية، وهي جبهة حديثة النشوء، غضة العود، قليلة العدد، مع كثرة المشاكل والضغوط التي يخلقها المجتمع الجاهلي.. كان عليهم الارتباط القوي، والاتصال المحكم، حتى لا يستطيع أي عامل النفوذ إلى جبهتهم ليفرق بينهم.. كانوا أشد الحاجة إلى ما يسميه المثقفون هذه الأيام بالانضباط الحزبي الحديدي؛ عليهم الاتصال أكثر ما يستطيعون والتفاعل بأقوى ما يقدرون، وعليهم الابتعاد ما استطاعوا عن الصفوف والتيارات المضادة لأنهم يشكلون الأقلية، وفكر الأقلية إذا حوصر وضيق عليه فليس له أي قيمة، فإنه كعمل الأقلية وشخصيتها قد يضيع في المسالك العملية المتعددة التي ترجع إلى الجماعة المخالفة التي تشكل الأكثرية، وبهذا تسحق شخصية الأقلية وعملها وفكرها ضمن شخصية الأكثرية وتوجهاتها.

إذن لابد لتلك الجماعة من الانسجام والاتصال والوحدة والانفصال عن سائر الجبهات الأخرى من أجل أن تبقى هذه الجماعة متشكلة ومؤلفة، وأساساً لبناء المجتمع الإسلامي الكبير القائم على أسس القوة والمتانة والثبات؛ ذلك المجتمع الذي تبنيه أيادي هذه الجماعة الصغيرة.

وحال هذه الجماعة عندما تريد بناء مجتمعها الكبير يشبه حال أولئك الذين يتسلقون الجبال فهم يطمحون طي المسافة الملتوية المتعرجة، ويحمل كلٌ منهم عصا، وطريقهم الجبلي مغطى بالثلوج كثير الارتفاعات الشاهقة والانخفاضات السحيقة؛ فمن أجل أن يصل هؤلاء إلى قمة الجبل لابد أن يلتزموا بالوصايا التي تقدم لهم بشأن تسلق الجبال، التصقوا ببعضكم، شدوا الظهور سوية، لا تسيروا متفرقين فإن من يبقى وحده قد ينزلق ويسقط.

يوصي هؤلاء بالالتحام الشديد والتفاعل المشترك، ويقال لهم أيضاً لا تثقلوا ظهوركم بالأحمال الثقيلة، ولا تنظروا إلى الأطراف المحيطة بكم، بل عليكم تركيز نظراتكم على طريقكم، وركزوا حواسكم على عملكم، وتشد أيدي هؤلاء وظهورهم بإحكام حتى إذا سقط واحد منهم أو اثنان كان بإمكان الباقين إنقاذه وإرجاعه إلى حالته المتوازنة. هذه الحالة الشديدة الاتصال والتفاعل تعتبر مثالاً واضحاً لحالة المسلمين الأوائل انسجاماً واتصالاً وتفاعلاً.

هل لهذه الحالة المتفاعلة المتصلة اسم خاص في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة، أم ليس لها اسم؟

وهل تقبل الانفصال والذوبان تلك العلاقة الصميمية بين المسلمين الأوائل الذين شكلوا الجبهة الإسلامية الأولى؟ ألم تكن هذه الجبهة منفصلة بنحو كامل عن سائر الجبهات المضادة فكراً وسلوكاً، مبدأ وغاية، مع أنها شديدة الالتحام والتفاعل داخل صفوف المسلمين؛ فالأيادي متشابكة ومتلاصقة والقلوب متوحدة متفاعلة، والأجساد متراصة والمسلمين يشد بعضهم بعضاً.

هل لهذه العلاقة اسم خاص في القرآن الكريم؟ نعم هناك اسم لهذه العلاقة الالتحامية، ولهذه الجبهة المتميزة والتي شكلتها مجموعة من الأفراد ذوي الفكر الواحد والطموح الواحد والهدف الواحد والواضعين خطاهم في طريق واحد والمتحركين من أجل غاية واحدة والذين يعتقدون بعقيدة واحدة، هؤلاء الذين كانوا يلتحمون ويتآزرون فيما بينهم بقوة تشتد يوماً بعد يوم، وكانوا متمايزين عن باقي الجبهات والتيارات والرؤى الفكرية بصورة واضحة على كل المستويات الفكرية والسلوكية، وهم يحافظون على تميزهم واستقلالهم هذا، ولماذا كل ذلك؟

لأنهم لا يريدون الذوبان والتحلل في الآخرين. والقرآن الكريم يصطلح على هذه العلاقة بالولاية. كان الرسول (ص) هو الذي أوجد تلك الجماعة المتفاعلة المنسجمة؛ فآخاهم ووحدهم وحولهم إلى جسد واحد. ومن هذا الكيان المنسجم تشكلت الأمة الإسلامية، ومن هذه الجماعة تولد المجتمع الإسلامي؛ وقد فصلهم الرسول وأبعدهم عن أعدائهم ومخالفيهم ومعانديهم كما سنقرأ ذلك في الآيات القرآنية.

وقد أوجد الرسول حاجزاً بين المسلمين وبين سائر الجبهات، ومنعهم من تكوين أي علاقة مع جبهات اليهود والنصارى والمشركين، وكان يسعى ما أمكنه السعي إلى أن يجعل الصفوف الإسلامية متصلة مملوءة متوحدة متفاعلة منسجمة، لأنهم إن لم يكونوا على تلك الحالة وإذا لم يكن بعضهم يوالي بعضاً، لا يستطيعون حمل الأمانة الملقاة على عواتقهم وسوف يعجزون عن النهوض بها وإيصالها إلى غايتها المنشودة ونهايتها المطلوبة. وعندما يتحول المجتمع الإسلامي إلى أمة عظيمة تبقى ضرورة الولاية قائمة.

وسنأتي بالشرح على ذلك.. ومن أجل أن نصل إلى معرفة إجمالية للولاية عند الشيعة، علينا التدقيق فيما تقدم من أن المجتمع الصغير يلزمه الالتحام والارتباط القوي وهو يعيش في دنيا يخيم عليها الظلام وتحكمها الجاهلية؛ لابد له من ذلك الالتحام والانسجام من أجل البقاء والديمومة، فلن يكون له وجود وحياة إذا لم يكن متصلاً منسجماً متفاعلاً، ومثال ذلك المسلمون الأوائل الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وكانوا يعيشون وسط المجتمع الجاهلي، ومثال آخر المجتمع الشيعي الثائر الصغير في عصور الخلافة الأموية والعباسية والتي كانت تنصب الكيد والعداء للإسلام.. هل كان من اليسير بقاء تلك الجماعة المؤمنة، مع شدة الحملات التشويهية، وحملات الرعب والتجويع والاعتقالات والسجن والقتل؟ ما هو هدف كل هذه الحملات؟ ألم تكن تهدف إلى تذويب وسحق ذلك الجمع المنسجم فكراً وسلوكاً، مع ملاحظة أن هذا التجمع كان يعارض بشكل واضح وصريح الاتجاهات الحاكمة آنذاك؟

أما كيف قدر لهذا الجمع أن يبقى؟! ذلك لوجود العلاقة الصميمية والمتفاعلة بشكل مدهش والتي يسميها القرآن بالولاية، وتحت ظلال هذه الولاية أمكن بقاء الشيعة كمدرسة تواجه المدارس المعارضة. تصوروا نهراً عظيماً واسعاً تصب فيه روافد مختلفة منتشرة الأطراف هنا وهناك، والمياه تجري سريعاً، لن يكون سطح الماء مستوياً بل ستكون هناك حفر كثيرة. مع اختلاط المياه ببعضها وبتيارات الماء التي تصب من الروافد ومن كل الاتجاهات يحدث تفاعل شديد بين مجموع هذه المياه الجارية، سوف يطغى بعضها على بعض والماء جارٍ من غير توقف مما يبعث على أن ينتشر الطين والترسبات هنا وهناك.

ماذا تقولون لو شاهدتم مجرىً نظيفاً زلالاً وفراتاً عذباً داخل ذلك النهر العظيم وهو محافظ على نقاءه وتميزه بصورة تثير الدهشة والإعجاب؟ لم يمسسه سوء من كل الأطراف المحيطة به، لم تختلط أو تمتزج مياهه بمياه النهر الكبير. فما تغير لونه مطلقاً، ولم يتأثر مذاقه العذب بمذاق ماء النهر الأجاج، حلو الطعم عذبه، أبيض اللون، شفاف بلوري، صاف خالص نقي، يسير محافظاً على صفائه وخلوصه في مجراه قُدُماً. شبّهوا العالم الإسلامي في أيام الأمويين والعباسيين بهذا النهر، حيث كانت التيارات والمدارس الفكرية والسياسية المختلفة في صراع.

انظروا إلى هذا الصراع من أوله إلى آخره، تجدون مجرى التشيع كالخيط الرفيع من الماء داخل ذلك الطوفان المهيب؛ فهو شيء وكأنه لا شيء، يرى صغيراً وكأنه لا يرى، لكنه كان محافظاً على وجوده، لم يصبه كدر المياه المختلفة، ولم يتغير

طعمه أو يفقد صفائه ونقاوته، ولم تستطع التأثير فيه مذاقات المياه المختلفة أو رائحتها أو ألوانها، حافظ على بقائه مستقلاً وسلك مسيره وطريقه. ما هو ذلك العامل الذي حافظ على وجوده ونقائه واستمراره؟ إنه وجود الولي، الذي كان يوصي بإنشاء علاقة الولاية بين أتباعه. وكان يربط بعضهم ببعض، ويجعل بعضهم رحيماً ببعض، وكان يذيع هذه العلاقة ويشجع عليها ويحفظها قوية بين أفراد جبهته، هذا بعد من أبعاد الولاية عند الشيعة، وهناك أبعاد أخرى سوف نحققها ونحللها.

فليس كل ما تعنيه الولاية هو هذا، بل إن هذا جانب من جوانبها وبعد من أبعادها. وعلى هذا نعرف أن الولاية هي الاتصال والترابط والانسجام بين الأفراد. والقرآن يعتبر المؤمنين أولياء فيما بينهم، والذين آمنوا وأخلصوا يشكلون في منطق القرآن جبهة واحدة. وورد مصطلح المؤمن في رواياتنا تعبيراً عن الشيعي، والإيمان بناء على هذا المصطلح، هو الاعتقاد بالفكر الإسلامي الذي يعتمد على أساس الولاية، والإيمان هو الرؤية الإسلامية من خلال زاوية النظر هذه.

ونحن نرى أن الانسجام كان قوياً وشديداً في زمان الأئمة (ع) وكانت الأخوة هي الظاهرة البارزة، كان ذلك من أجل المحافظة على التيار الإسلامي حياً صافياً متدفقاً على مر التاريخ. ولو لم تكن العلاقة بهذا الشكل القوي فما الذي يقع؟

سوف يفنى الإسلام والمسلمون ألف مرة وستذوب أفكارهم وتصادر، كما حصل ذلك لبعض الفرق الأخرى حيث فقدوا صبغتهم وذابوا وانتهوا.. على كل حال هذا بعد من أبعاد الولاية.

ونتعرض الآن للبعد الآخر الذي يتلو سابقه في الأهمية وهو بعد ولاية ولي الله؛ فقد عرفنا معنى ولاية الشيعة، فما الذي نريده بولاية ولي الله؟ ولاية علي بن أبي طالب ماذا تعني؟ ماذا نعني بولاية الإمام الصادق(ع)؟ ويجب علينا جميعاً أن نوالي الأئمة (ع)، فما نعني بهذه الولاية؟

هناك من يتخيل أن ولاية الأئمة لا تعني أكثر من محبتهم والانشداد القلبي بهم، وهذا وهم كبير؛ فليست الولاية محبة فقط، وهل يوجد في العالم الإسلامي من لا يحب الأئمة المعصومين وأهل بيت النبي وذوي قرباه؟! فهل الكل موالون؟! وهل هناك من ينصب العداء للأئمة وأهل البيت؟ وهل كان كل أولئك الذين قاتلوا الأئمة يعادونهم؟ كان الكثير منهم يحب الأئمة ولكن حب الدنيا جعلهم يقاتلونهم، وكان الكثير منهم يعرف مقام الأئمة وسمو مكانتهم وفضائلهم.

فعندما بلغ المنصور خبر وفاة الإمام الصادق(ع) أخذ يبكي. هل تتصورون أن المنصور كان يتظاهر بالبكاء؟ أمام من يتظاهر؟ أمام أتباعه والسائرين في ركابه؟ أمام ربيع الحاجب؟ كلا، لم يكن بكاؤه تظاهراً، وإنما كان محترق القلب ومتحسراً لوفاة الإمام الصادق. لكن من هو قاتله؟ المنصور هو الذي أمر بدس السم للإمام.. وعندما بلغه خبر التنفيذ تألم وتحسر وتحطم قلبه، فهل يكون المنصور من أهل الولاية للإمام الصادق لأنه تألم لوفاته؟ وقد انتهى هذا الفهم للولاية إلى نتيجة خاطئة شأن المأمون حيث تصور الكثير من أن المأمون كان شيعياً، فمن هو الشيعي في منطق هؤلاء؟ هل أن الشيعي هو من يعرف أن الحق مع الإمام الرضا (ع) ويكفيه هذا؟! على ضوء هذا الفهم ليس المأمون فقط شيعياً بل أبوه هارون الرشيد شيعي أيضاً، وكذلك المنصور ومعاوية ويزيد، بل هم من ألصق الناس بالشيعة حينئذ.

وأولئك الذين نازعوا علياً وخاصموه وحاربوه، هل كانوا يكرهون علياً؟ كلا، إن أغلبهم كان يحب علياً، فهل نجعلهم شيعة لعلي ومن أهل ولايته وولائه؟ كلا، إن الولاية أسمى من هذا المعنى وأرحب..

وحين نفهم حقيقة الولاية لعلي بن أبي طالب وللأئمة (ع)، نرجع إلى أنفسنا لنرى هل تنطوي جوانبها على هذا الولاء أم لا ؟

وإذا لم نجد الولاء سألنا الله سبحانه أن يرزقنا الولاء للأئمة، وبذلنا الجهد في سبيل الحصول على هذا الولاء. وحين ننتهي إلى بيان المعنى الحقيقي للولاية سوف يتبين الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون في تفسيرهم للولاية، وقد اعتاد الشيعة في يوم (18 ذو الحجة) وهو عيد الغدير أن يتداولوا هذا الدعاء "الحمد لله الذي جعلنا من المتمسكين بولاية علي بن أبي طالب (ع)". وكثيراً ما قلت لأصدقائي وأحبتي لا تقولوا الحمد لله الذي جعلنا فإني أخشى أن يكن هذا كذباً، ولكن قولوا اللهم اجعلنا من المتمسكين بولاية علي بن أبي طالب (ع)، إن علينا أن نلاحظ هل أننا من المتمسكين بالولاية أم لا؟ وسنصل إلى دراسة هذه الناحية إنشاء الله.

وهذا بعد آخر للولاية، وخلاصة ما قلته أن ولاية الأمة المسلمة وولاية تلك الجبهة السائرة والمجاهدة في سبيل الله تعني العلاقة المتفاعلة والمنسجمة والمتصلة بين أفراد هذه الأمة وهذه الجبهة، والتي تظهر في العلاقات القلبية المشتركة والمتلائمة وفي الاستقلالية الكاملة عن باقي الجبهات التي تحمل فكراً آخر وتسلك سلوكاً مضاداً وتعمل في سبيل إلغاء هذه الأمة ومصادرة وجودها.

وآيات سورة الممتحنة شاهد صدق على هذه الحقيقة، وأنا أتصور أنها إنما سميت بهذا الاسم لتناسب هذا المعنى، ولعلها إنما سميت باسم الولاية من أجل ذلك.

{بسم الله الرحمن الرحيم* يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} الآية تنهى المؤمنين عن اتخاذ غيرهم أولياء وأحبة وأعضاء في مجتمع المؤمنين، وليس الأمر كما ترجمه بعضهم إلى الفارسية بمعنى المحبة فقط؛ فإن هذا ليس هو المعنى الكامل لكلمة الأولياء، وليست المسألة مقتصرة على المودة والمحبة بل هي أرفع من ذلك وأعمق؛ فالآية تريد أن تقول لا تعتبروا أولئك منكم ولا تحسبوهم من جبهتكم وصفكم وأعضاء من مجتمعكم وأمتكم، ولا تجعلوا أنفسكم منهم ومن جبهتهم حتى على مستوى الافتراض الذهني والتقدير والتصور فضلاً عن الاعتقاد والجزم، لا تجعلوا عدو الله وعَدوّكم إلى جنبكم ومعكم، بل كونوا صفاً يقابله، وقفوا في وجهه وعارضوه. {تلقون إليهم بالمودة} لا تعتبروهم من جبهتكم ومن صفكم حتى تعلنون لهم عن مودتكم لهم، {وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم} فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء {إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي} فإن كنتم صادقي الإيمان والجهاد فما لكم من حق في اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء واعتبارهم من صفكم وأمتكم.

والآيات اللاحقة تشير إلى الكفار الذين يعنيهم الله سبحانه لأنها تذكر أقسام الكفار {تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيلي}.

ولابد أن نذكر أن سبب نزول هذه الآيات هو ما فعله حاطب بن أبي بلتعة، حيث كان رجلاً ضعيف الإيمان، وعندما عزم الرسول على الخروج لمقاتلة كفار قريش وجهادهم أخذ حاطب يحدث نفسه (لو لم ينتصر الرسول في هذا الخروج وهذه المعركة فسوف تلحق قريش الضرر بأقاربي الذين يسكنون بين ظهرانيهم). أراد حاطب وهو من جند الرسول أن يحتال لإنقاذ أقاربه، فقال لنفسه نحن الآن قرب النبي ونجاهد معه وسيصيبنا أجر المجاهدين وثوابهم، فعليَّ أن أحتاط للأمر بكتابة رسالة إلى الكفار أعلمهم فيها عن مودتي ووفائي لهم ولا ضرر في ذلك، إذ عندما تتلاقى السيوف في ميدان القتال لن أعمل بمفاد هذه الرسالة، ولا مانع من أن اخدع الكفار برسالتي ما دامت الحرب لم تقم، وسأحصل على الدنيا وعلى ثواب الله[5]. وسأكون مصداقاً لتلك القصة المعروفة التي تقول أنه تنازع عمدة البلد ومختارها مع أحد أكابر هذه البلدة، فسألا أحدهم مع من ترى الحق، ومن هو قائله؟ فقال: كل منهما يقول الحق، فكان مع الجبهتين على وفاق تام. كتب حاطب رسالة إلى رؤوس قريش حتى يطلعهم على علاقته الودية معهم وعلى صداقته الحميمة والرحيمة لهم، ودفع الرسالة لأمرأة لتوصلها إلى مكة، وأطلع الوحي الرسول على الحادثة، فأرسل خلف المرأة أمير المؤمنين وأرسل معه واحداً أو اثنين من المسلمين يقبضوا على المرأة، وجد عليٌّ المرأة وهددها، فأخرجت الرسالة من ضفيرتها. سأل النبي (ص) حاطباً: لم فعلت هذا؟ ولم كشفت للعدو عن أسرارنا العسكرية والقتالية؟. قال: يا رسول الله إن لي رحماً وعشيرة في مكة، وخفت عليهم أذى قريش وتضييقهم، فأردت أن أجلب لينهم وعطفهم، فكتبت لهم هذه الرسالة. وتجيب الآية الكريمة: لا تخطئوا فإن هؤلاء لن يلينوا لكم، ولن تقترب قلوبهم معكم لأنهم يشكلون جبهة فكرية مضادة لكم، وهم يعلمون أن دينكم وإيمانكم سوف يستأصلهم ويلغي وجودهم، وقد وضعوا كل همهم للقضاء على دينكم وإيمانكم، فهيهات أن يكونوا معكم رحماء أو يكونوا لكم أصدقاء. تقول الآية {أن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء} فيا حاطب بن أبي بلتعة، لا تتصورنَّ أن هؤلاء سيكونوا حافظين لك ولرحمك في غدٍ، لأنك أعنتهم اليوم. كلا، فإنك إن تقربت إليهم وتنازلت عن شيء بسيط، فإنهم ينتظرون تنازلاً أكبر، وسيتسلطون عليك أكثر ويمدون إليك يد العداوة والظلم {أن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء} سيضغطون عليكم أكثر، ويذلوكم، ويسلبوكم شخصيتكم وعزتكم وكرامتكم، ولن ينظروا إليكم نظرة احترام، فلا تحسبوا أنهم ينفعونكم، وودوا لو تكفرون. وحين يتسلطون عليكم سوف يسلبوكم تلك العلقة الباقية من الإيمان، فهل تحبون أن تكفروا؟ لا تتصوروا ولا تظنوا أن هؤلاء يتركونكم على دينكم بكل حرية وراحة أو يسمحوا لكم بالتنسك والعمل على ضوء رسالتكم ودينكم.

بعد هذا يأتي دور البيان القاطع الذي يوجهه القرآن بشأن أقارب حاطب وكل من شاكلهم في التاريخ، فهو يقول: أنتم على استعداد واهبة للتنازل عن دين الله ورسالته من أجل قومكم وأقاربكم وأرحامكم وأولادكم فتظهرون لأعداء الله محبتكم

ومودتكم، فأي منفعة سوف تجنونها من أولادكم وأرحامكم؟! وكم سينفعكم أولئك الذين تسالمون قريش من أجلهم؟! هل سينجوكم من عذاب الله؟!

وهذا حاطب الجاهل كان على وفاق مع قريش والكفار وأعداء الرسول من أجل أن لا يلحق بأرحامه ضرر منهم، كم هي منفعة هؤلاء الأولاد والأرحام حتى يتسبب الإنسان من أجلهم في سخط الله عليه؟ {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم} {يوم القيامة يفصل بينكم}. نستطيع أن نقرأها منفصلة عما سبقها، ويكون معناها أن الله يفرق بينكم فلن ينفع أحدكم الآخر، ونستطيع أيضاً قرائتها بهذا الشكل {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة} ثم {يفصل بينكم} ويكون مفادها أن الله يفرق بينكم يوم القيامة.

وهذه الفقرة من الآية الكريمة لها نظير في القرآن الكريم وهو قوله تعالى في سورة عبس {يوم يفر المرء من أخيه* وأمه وأبيه* وصاحبته وبنيه}[6]. فهذا الطفل الذي تتحمل كل غم وهم من أجل راحته سوف يفر منك، وكل فرد سوف يفر من سائر المخلوقات، فكل يفر من الآخر، إذ ليس لديه وقت يسأل فيه عن حالهم، {لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه} وليسمع منطق القرآن من يضحي بسعادة دنياه وآخرته من أجل راحة أولاده وسعادتهم ويتحمل من أجل ذلك أنواع البلاء والشقاء ويجعل آخرته وراءه ظهرياً، ليسمع آيات القرآن لعله يخشع ويلين {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم، يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير* قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه}. هذا المقطع من الآيات هو القمة في السياق القرآني، أيها المؤمنون انظروا ما فعله إبراهيم والذين معه فاجعلوهم لكم أسوة وتابعوهم في عملهم، فما الذي فعله أولئك؟ لقد قالوا لقومهم الضالين وللطاغوت وللآلهة المزيفة {نحن براء منكم} لقد كفرنا بكم، ونحن على جفوة معكم، ويفصل بيننا وبينكم العداء والبغض. نعم هناك طريق للوفاق معكم {حتى تؤمنوا بالله وحده} فإذا اعتنقتم أفكارنا فنحن معكم ولكم، فتعالوا إلى الإيمان بعقيدتنا. القرآن يأمر المسلمين أمراً صريحاً بالنهج على طريقة إبراهيم {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلاّ قول إبراهيم لأبيه}.

كان هناك مورد مستثنى، إذ لم يقطع إبراهيم علاقته بكل الكافرين جميعاً؛ حيث قال لعمه {لأستغفرن لك ربي وما أملك لك من الله من شيء} فلا تتصورن انك ستدخل الجنة بشفاعة ابنك المطيع لله سبحانه. كلا، فأنا لا أستطيع أن أدخلك الجنة، ولكني سأتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه من أجل أن يغفر لك ذنوبك ويجعلك من المؤمنين {ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا وأغفر لنا، ربنا إنك أنت العزيز الحكيم}. هذا دعاء ابراهيم، ثم يقول القرآن الكريم {لقد كان فيهم لكم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ومن يكون على وفاق مع أعدائه فسوف يفقد عزته، ويذل شخصيته، ويتنازل عن كرامته، ولن يضر الله شيئاً، ولتحفظوا ما قاله ابراهيم، ولتتذكرونه دائماً، فإنه والذين معه قالوا لأعدائهم الكفار والمنحرفين عن رسالتهم {إنا براء منكم} وبهذه الطريقة كان تعامل الإمام السجاد والذين اتبعوه مع المنحرفين في زمانهم؛ فقد ورد في كتاب بحار الأنوار قصة حواريّ الإمام السجاد، يحيى بن أم طويل، الذي دخل المدينة المنورة ووقف مواجهاً أهلها الذين يتظاهرون بأنهم أتباع آل محمد وأوليائهم؛ أولئك الذين عاش بين ظهرانيهم الإمام الحسن والحسين طول عشرين سنة، وما كانوا أتباعاً لبني أمية ولا من محبيهم، لكنهم كانوا هيابين جبناء خيمت عليهم ظلال الخوف من واقعة الطف وكربلاء، وكان نتيجة الرعب الذي أفشاه بنو أمية أن تخلفوا عن أهل البيت وتركوهم منفردين، وكانت عقيدتهم سليمة، مع ذلك وقف يحيى بن أم طويل يوجه هؤلاء وقرأ عليهم {كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً} وهو نفس كلام إبراهيم والذين معه مع المشركين والمنحرفين والضالين. فالولاية هي الولاية كما تلاحظون، وإبراهيم كان على الولاية، وشيعة الإمام السجاد كانوا على الولاية، فهم على انسجام فيما بينهم، وهم على جفاء وبينونة مع عدوهم، ويخرج عن الولاية للإمام السجاد(ع) من دفعه الخوف أو الطمع إلى الانضواء في صفوف جبهة العدو.

ولهذا يقول يحيى تلميذ الإمام السجاد(ع) لهذا وأمثاله (كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً).

ويحيى بن أم طويل تلميذ الإمام السجاد ومن أصحابه البررة المخلصين، وكان مصير هذا الرجل الصالح أن أخذه الحجاج وقطع يده اليمنى ثم اليسرى ثم قطع رجله اليمنى فاليسرى، ولما أراد أن يتكلم بالحق قطع لسانه حتى مات (رحمة الله عليه) وكان دمه سبباً لديمومة حياة التشيع، وقد بني بدمه وشهادته أسس التشيع الشامخة الرصينة بعد الإمام السجاد.

خلاصة المقالة الأولى

الرؤية الإسلامية الجديدة التي بلغها الرسول عن ربه سبحانه وتعالى، تعطي للحياة معنى الجدية، فهي رؤية متميزة، لا تستطيع تحقيق أهدافها في بناء هذه الحياة جديدة ما لم تظهر بشكل عملي وفعلي متمثلة في فكر المؤمنين بها، وفي وجدانهم، وفي عملهم وسلوكهم. والمؤمنون هم المجموعة المنسجمة المتفاعلة من الناس. وهذه المجموعة تشكل جبهة قوية غير قابلة للنفوذ والاختراق من قبل الأعداء. ويلزم هذه الجماعة أن تتوحد وترص صفوفها وتملأ ثغراتها وتصمد في طريقها حتى لا تذوب في التيارات والمدارس الفكرية النظرية والعملية المعارضة، وهذا يستلزم بدوره الابتعاد عن كل ما يحدث الخلل والضعف والوهن في هذه المجموعة ويجعلها عرضة لتأثير الأفكار المعارضة، ويلزمها كذلك عند الضرورات قطع العلاقات العادية أو تحديدها مع أولئك المعارضين.

ويطلق القرآن الكريم كلمة التولي والموالاة والولاية على هذا التوحد والانسجام والتراص في جبهة واحدة فكرية وعملية. وهذا التجمع المنسجم الموحد هو حجر الزاوية في المجتمع الإسلامي وهو الذي يشكل أسس بناء الأمة الإسلامية، ومن أجل أن تحفظ الأمة الإسلامية العظيمة وينشأ المجتمع الإسلامي الكبير لابد من حفظ الوحدة والانسجام ولابد من الحذر من نفوذ الأعداء واختراقهم لحصون هذه الأمة، وليس من سبيل لحفظ الوحدة غير سبيل الولاية والولاء، والأمور الدقيقة التي ترتبط بالولاية القرآنية والتي نشير إليها مستقبلاً إنشاء الله لابد من استنتاجها من آيات قرآنية متعددة {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة}.

{وقد كفروا بما جاءكم من الحق} (فكيف تتخذونهم أولياء).

{يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم} (وقد اتخذوكم جبهة مضادة لهم).

{إن كنتم خرجتهم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي} (فعليكم مجانبة أولئك).

{تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما اخفيتم وما أعلنتم}

{ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل} (من يتخذ الكافرين أولياء)

{إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء}

{ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء}

{وودوا لو تكفرون}

{لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم}

{يوم القيامة يفصل بينكم}

{والله بما تعملون بصير}

{قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم}

{وقد بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً}

{حتى تؤمنوا بالله وحده}.

سورة الممتحنة 1 - 5.

أسئلة حول المقالة الأولى

1 ـ ما هو نوع العلاقة بين الولاية والنبوة؟

2 ـ على ماذا اعتمد الرسول في تربية الإنسان؟

3 ـ المدرسة التربوية الإسلامية، ما هي ميزاتها؟

4 ـ ماذا تعني الولاية حسب الفهم الابتدائي؟

5 ـ ماذا تعني ولاية الشيعة فيما بينهم؟

6 ـ ماذا تعني الولاية لولي الله؟

7 ـ ما هي الأوامر المستفادة من سورة الممتحنة والموجهة للمؤمنين؟

8 ـ كيف كان إبراهيم وأتباعه نموذجاً للمؤمنين، وكيف يظهر هذا الانموذج في حياة المؤمنين هذه الأيام؟

9 ـ ماذا قال يحيى بن أم طويل في المسجد؟ ولمن نقول هذا الكلام هذه الأيام؟

---

[1] ـ أصول الكافي، باب دعائم الإسلام، الحديث الخامس.

[2] ـ ورد لفظ الصنع تعبيراً عن عملية تربية وإعداد الإنسان في القرآن الكريم في قوله تعالى {ولتصنع على عيني} سورة طه،الآية: 39.

[3] ـ سورة النحل، الآية: 125.

[4] ـ نهج البلاغة، الخطبة القاصعة.

[5] ـ مثل فارسي سائر "هم خدا را داشت باشيم وهم خرما".

[6] سورة عبس، الآيات: 34 ـ 37.

المقالة الثانية

العلاقة المهيمنة على الأمة الإسلامية

الجماعة التي تشكل الأمة الإسلامية، تحكمها الشريعة الإلهية والقانون الرباني، وتنفذ كل ذلك بقوة تنفيذ إلهية، ويهيمن الفكر الإسلامي على كل وجودها. إذا أرادت هذه الجماعة الوصول إلى المعنى الواقعي للولاية كما أوضحها القرآن وكما تقدم عرضها في المقالة الأولى، فلابد من تأكيد جهتين:

أ ـ الجهة الأولى: العلاقات الداخلية الحاكمة في المجتمع الإسلامي.

الجهة الثانية: العلاقات الخارجية والروابط بين العالم الإسلامي وبين الأمم غير المسلمة. فيما يعود إلى العلاقات الداخلية نرى أنه لا مجال للفرقة والتشتت، والذي يسود داخل المجتمع الإسلامي هو الانسجام والتفاعل والعلاقات الصميمية، ذلك أن الولاية بمعناها القرآني تستلزم ذلك وتعني به. إذن أفراد المجتمع الإسلامي أخوة منسجمون، صفوفهم متحدة، لا يسمح لها

بالتفرق والتشرذم، وإذا حدث قتال أو خصومة أو نزاع بين طائفتين أو فردين مسلمين فإن القرآن يأمر المسلمين جميعاً بأن يبذلوا كل جهودهم من أجل إيقاف النزاع ورفع التخاصم، وعليهم السعي للصلح بين المتنازعين والموائمة بينهما، وإذا أبت إحدى الطائفتين الصلح والسلام واختارته الأخرى، أو كان أحد الطرفين محقاً والآخر مبطلاً لا يخضع للحق فإن على المسلمين جميعاً في هذه الحالة أن يقوموا يداً واحدة بوجه المبطل ويوقفوه عند حده ويجلسوه في مكان {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله}. هذا الأمر الإلهي يحفظ الوحدة داخل صفوف المجتمع الإسلامي.

وأما فيما يرجع إلى العلاقات والروابط الخارجية، فالأمة الإسلامية مسؤولة عن تنظيم هذه العلاقات بشكل لا يوقعها بأي حال من الأحوال تحت دائرة نفوذ الأمم الأخرى وسيطرتها فكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً، والأمة المسلمة لا يسمح لها أن تنتهج نهجاً سياسياً غير النهج الإسلامي ولو بشكل جزئي ومحدود، فعليها المحافظة على استقلالها السياسي بصورة دقيقة وكاملة، وليس لهذه الأمة أن تدخل إلى جبهتها أي طرف لا يؤمن برسالتها. وتؤكد ذلك القصة المعروفة والتي وقعت أحداثها في زمن الإمام الباقر (ع) والتي يُذكر عادة في المصادر الشيعية يوم كان المسلمون يتعاملون بالنقد المسكوك في بلاد الروم، ولأمرٍ ما هددت السلطات الرومية جهاز الخلافة بقطع هذه النقود عن البلاد الإسلامية، فأرشد الإمام الباقر جهاز الخلافة إلى طريقة لحل هذه المشكلة وذلك بأن يستقل المسلمون بسك النقود لأنفسهم، وقد فعلوا ذلك وخرجوا من أزمة قاتلة.

والذي يثير الدهشة في سيرة أئمة الهدى (ع) انهم طوال عمرهم الشريف المبارك لم تكن لهم أدنى علاقة ولو جزئية بالأجهزة الحاكمة. نعم هناك مورد أو موردين نستثنيهما وأحدهما القضية المتقدمة. وعلى هذا سوف يمنع ويطوق أي تأثير خارجي من قبل الأجنحة غير الإسلامية يستهدف النفوذ داخل حصون الأمة المسلمة، وليس للمجتمع أو الأمة المسلمة أن تشكل أي علاقة مع العالم غير الإسلامي إلا بالصورة التي تحفظ الرفعة والهيمنة للإسلام.

ليس من صلاحيات الأمة المسلمة إنشاء علاقة أو إبرام اتفاقية استثمارية مع أمة غير إسلامية أو بلاد لا تدين بالإسلام، كما حدث ذلك في اتفاقية التنباكو، وكمباني رزي.

وقد حدث نظير ذلك أيضاً في تاريخ الهند حيث سمح الحكام المغول للدول الأجنبية بالدخول إلى الهند لتنفيذ جملة من الاتفاقيات.. لا يجوز للمسلمين القيام بمثل هذا العمل وليس هذا من صلاحياتهم لأنها تنافي مبدأ هيمنة الإسلام والعالم الإسلامي على غير المسلمين، والعالم الإسلامي هو صاحب الولاية والحاكمية على غير المسلمين في البلاد الإسلامية، وما الذي حدث للهند الشرقية عندما دخلتها الدول الأجنبية على الجميع أن يعرف أن الاستعمار استطاع النفوذ داخل شبه القارة على سعتها بصورة دقيقة.

نعم لا يسمح للأمة المسلمة إقامة مثل هذه العلاقات، وعليكم أن تعرفوا أنه ليس مقصودنا من ذلك أن تعيش الأمة المسلمة حالة الانزواء السياسي. ليست المسألة بهذا الشكل، إذ كيف يمكن أن لا يكون للعالم الإسلامي أي علاقة تجارية أو سياسية أو دبلوماسية مع العالم، بل أن للدولة الإسلامية علاقات ولكن هذه العلاقات لا تكون مقدمة لولاء الأمة الإسلامية لأولئك ولا تتسبب في إنشاء وإيجاد علاقة نفسية معهم، فليس وراء هذه الروابط والعلاقات والاتفاقيات التجارية والصناعية وغيرها أي اتصال حقيقي أو هوى بين المسلمين والكافرين حتى لا يفتح الطريق أمام النفوذ الاستعماري داخل البلاد الإسلامية. وعلى هذا فإن الولاية القرآنية ذات اتجاهين، اتجاه داخل المجتمع الإسلامي ووظيفته توحيد العناصر جميعاً ودفعها للسير في هدف واحد وجهة واحدة ومسيرة واحدة، واتجاه خارج المجتمع الإسلامي ووظيفته قطع كل العلاقات بين المجتمع المسلم وبين كل التيارات والسلطات غير المسلمة.

وهنا يظهر مطلب دقيق سوف نتعرض له في حينه وهو أن هذه الولاية هي نفس الولاية التي عند الشيعة، فنحن الشيعة نعتبر الارتباط بالإمام أمراً مهماً وعظيماً، ونحن نمتثل أمر الإمام في كل شئون حياتنا الاجتماعية، وكيف نفهم ذلك من القرآن؟ نفهم ذلك من النصوص القرآنية التي تتحدث مع المسلمين عن الولاية.

وإذا أراد المجتمع أو الأمة أن تلتزم بالولاء بمعناه القرآني، أي إذا أرادت أن تركز كل قواها الداخلية في جهة واحدة نحو هدف واحد وتقف بوجه كل القوى غير الإسلامية بعد تعبئة قواها الداخلية هي، تحتاج حينذاك إلى نقطة مركزية ومحور تكون له القدرة وبيده القرار، والمجتمع المسلم يحتاج إلى مركز تلتقي عنده كل القوى الداخلية وتنجذب إليه، والمسلمون

جميعاً يستلهمون منه ويسمعون له ويستجيبون لأمره، وهو مطلع على تمام المصالح والمفاسد، ليكون حافظاً لرسالة الله ويمكنه بذلك توظيف كل الطاقات في مجالاتها المناسبة.

من الضروري إذن وجود قيادة ورئاسة وقدرة متمركزة إجتماعياً تعرف ماذا ينتج هذا الفرد أو ذاك، وماذا يمكنهم أن يقدموا حتى يلزم الجميع بأداء ما نستطيع أدائه. ولنأخذ مثالاً يقرب لنا هذه الفكرة.. أنتم تعرفون معامل الحياكة اليدوية للسجاد، فهناك مجموعة تعمل، ولكن أعمالها مختلفة، فالصبي والكبير، والمرأة والرجل، كل منهم يضع خيطاً في النسيج الكبير، وكل يقدم عملاً ونشاطاً معيناً. لو لم تكن هذه الأعمال منسجمة مع بعضها فكيف تصنع السجادة الكاملة؟ هناك خطة وفكر وعين وقرار فوقي تجعل الأعمال منسجمة والخيوط متداخلة متناغمة تشكل صوراً جميلة. لابد إذن من تعيين نوع الخيوط المستعلمة وكيفية وصلها وأماكن قطعها. لو لم تكن هناك خطة وقرار فكيف نترقب صناعة فراش كامل؟ عندما يراقب الإنسان هذا العمل يصاب بالدهشة.

فمن أين ظهرت هذه الوردة الجميلة في هذا الطرف؟ ثم كيف نبتت أختها وتوأمها في الحجم والشكل في الطرف الآخر؟ ومثل هاتين الوردتين ظهرت وردتان أخريتان في الجهة المقابلة للنسيج، وكل شيء منظم ومنسجم وفي مكانه الطبيعي.. كيف حدث هذا؟

لأن هناك خطة مرسومة، ومشرف صارم.. وكذلك المجتمع إذا أراد أن يجمع طاقاته وقدراته لتصب في جهة واحدة من غير أن تضيع طاقة من هذه الطاقات، ومن أجل أن تكون الطاقات جميعاً قوة واحدة متراكمة كأنها ذراع واحد متحدية الصفوف والقدرات غير الإسلامية والمعادية، يحتاج مثل هذا المجتمع إلى قدرة مركزية وقلب واحد. نعم هناك شروط يجب أن تتوفر في هذه القدرة والقلب الواحد؛ فيجب أن يكون واعياً كفوءاً بدرجة عالية، وعالماً بدرجة كبيرة، شجاعاً لا يتراجع، مدبراً حكيماً، له نظرة بعيدة تختلف عما يراه الآخرون، لا يخشى في الله لومة لائم، يقدم نفسه في سبيل الله عند الحاجة. ماذا نسمي مثل هذا الإنسان؟

نسميه (الإمام) أي القدوة والنموذج، والحاكم المعين بتعيين إلهي كما عين الله سبحانه إبراهيم {إني جاعلك للناس إماماً}[1]. وعندما نقول أن تعيين الإمام والقائد من الله نريد بذلك الإشارة إلى صورتين في التعيين الإلهي:

1 ـ أن يعين الله الإمام باسمه وعلاماته الخاصة به كما عين النبي أمير المؤمنين والحسن والحسين وسائر الأئمة (ع).

ـ أن لا يعينه باسمه بل بصفاته وشروطه كما ورد في حديث الإمام المهدي (عج) (فأما من كان الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه، فعلى العوام أن يقلدوه)[2]، فقد عين الإمام (ع) في هذه الرواية وغيرها صفات وشروط القائد والإمام ولم يذكر اسماً معيناً.. فكل شخص تنطبق عليه هذه الشروط يكون إماماً، وأريد بكلمة الإمام القدوة والمقدم والحاكم وصاحب الراية وحاملها، ذلك الذي يتبعه المسلمون أينما سار، يجب أن يعين هذا الإمام من الله ويجب أن يكون عادلاً مدبراً، ومتى ما أراد الكيان الإسلامي الكبير (الأمة الإسلامية) أن يكون حياً ناهضاً متحركاً قوياً يقظاً فعليه أن يحكم علاقته بقوة مع ذلك المركز والقلب المتحرك النابض بحرارة وقوة.

وعلى هذا يتبين أن البعد الآخر للولاية هو الارتباط المستحكم بين كل مسلم من المسلمين وفي كل الأحوال مع قلب الأمة المسلمة، وهذا الارتباط فضلاً عن كونه ارتباطاً فكرياً هو ارتباط عيني، فالإمام هو القدوة وهو المُتبع في الأفكار والرؤى وهو المطاع في الجانب السلوكي والعملي، فولاية علي (ع) تعني على هذا أن يتبع الإنسان علياً بأفكاره، وكذلك في سلوكه وعمله، وتكون له علاقة قوية متينة مع علي (ع) لا تقبل الانفصال. هذا هو معنى الولاية، وعلى ضوئه يتيسر لنا فهم معنى الحديث القائل (ولاية على بن أبي طالب حصني فمن دخل حصني أمِنَ من عذابي). هذا كلام دقيق عميق مفاده أن المسلمين وأبناء القرآن إذا تابعوا علياً في الجانب الفكري والسلوكي فسوف يأمنوا من العذاب، وذلك الرجل الذي يجعل القرآن مستعصياً على الفهم كيف يدعي أنه من أولياء علي (ع) وأنه من المرتبطين به فكرياً مع أن علي (ع) في إحدى خطب نهج البلاغة[3] يقول (واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان زيادة في هدى ونقصان من عمى). بهذا الشكل يحث علي (ع) الناس على دراسة القرآن، وبهذه الصورة يربطهم بالقرآن. فلو قال قائل أن القرآن عصي على الفهم، فهل يكون من أولياء علي بن أبي طالب. كلا، كان علي (ع) على أتم الأهبة والاستعداد للتضحية بتمام وجوده من أجل الله وفي سبيله، وهذا الذي لا يفهم القرآن ليس مستعداً للتنازل عن مثقال واحد من أمواله أو راحته أو شخصيته ومكانته الاجتماعية من أجل رسالة الله، فهل

هذا من الموالين لعلي (ع)؟ وليُ علي (ع) ذلك الذي أحكم علاقته بعلي بشكل غير قابل للانفصال فكراً وسلوكاً. دققوا في معنى الولاية هذا تجدونه أدق المعاني وأعمقها وأحسنها، واستمعوا الآن لآيات من سورة المائدة.

فقد بنيت هذه الآيات الجانب الاثباتي للولاية أي الجهة الداخلية وكذلك الجانب السلبي [الجهة الثانية] قطع العلاقات الخارجية، وتبين أيضاً البعد الثاني للولاية وهو الارتباط الفكري والسلوكي بالولي وهو قلب الأمة وحاكمها وإمامها.

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء}.

الأولياء جمع ولي وهو مشتق من الولاية، وهي الاتصال والعلاقة، فالولي من يتصل بآخر ويرتبط به ويتبعه.

{بعضهم أولياء بعض} فلا تنخدعوا بانفصال معسكراتهم ظاهراً، فهم يتحدون لمواجهة أصالتكم ورسالتكم في جبهة واحدة وخندق واحد، ومن يتولهم منكم [التولي تفعّل من الولاية] يعني من اتخذهم أولياء ووضع قدمه في وادي ولايتهم وارتبط بهم فإنه منهم {إن الله لا يهدي القوم الظالمين}.

{فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم} فهم لا يقتنعون باللحوق الطبيعي بهم بل يسارعون ولا يقتنعون بالاقتراب منهم بل يدخلون أعماق خندقهم وجبهتهم، وإذا سألتهم عن سبب ارتباطهم بهم وعن سبب عدم إظهار العناد لهم {يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة} ولننظر إلى كلمات الله التي تجيب:

{فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين} وعند ذاك يأسفون على خطئهم ويقولون لو كنا نعلم أن المؤمنين ينتصرون بهذا الشكل لما كانت لنا مودة أعداء الله ودينه، ويقول الذين آمنوا بعد افتضاح أولئك {أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم} كان هؤلاء يظنون بالناس الظن الحسن وينخدعون بالمظاهر.

قالوا أهؤلاء هم أهل الظاهر الحسن والذين يقسمون الإيمان المغلظة أنهم معكم، وكلما كلمناهم قالوا أنا معكم وليس لنا معكم خلاف، فنحن نقول ما تقولون، أكان كل هذا كلاماً كاذباً؟ هؤلاء مرضى القلوب على رغم ظاهرهم المقبول، وقلوبهم منافقة وسوداء وغلف {أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين}[4].

هذه الآيات إلى هذا المقطع تتحدث عن العلاقات والروابط الخارجية، ودققوا الآن في السياق التالي لهذه الآيات الراجع إلى العلاقات الداخلية {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه} فإذا لم تتحملوا عبأ الرسالة ومسؤولية تبليغها كما تعهدتم بذلك حين آمنتم بالله، وإذا لم تصلوا بها إلى مكانها وألقيتموها من على ظهوركم، فلا تتصوروا أن هذه المسؤولية لن يتحملها غيركم، بل سيكون الفخر لغيركم في حملها.

{يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه}.

هل نحن من هؤلاء الذين يحبون الله، وهل أن كلماتنا التي يحبها الله دليل على حبنا لله.. يجيب القرآن الكريم {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}.

{يحبهم ويحبونه} أي أنهم يسلمون لأمر الله كاملاً، والله يحبهم، وهذه المحبة ذات طرفين.

{أذلة على المؤمنين} وهذه صفة أخرى من صفات هؤلاء، أذلة على المؤمنين، متواضعين خاضعين، وهذا دليل قوة الارتباط والعلاقة الحميمة بالمؤمنين، وليسوا ذوي غرور أو طالبي أجر أو مقام، إذا التقوا بالناس كانوا منهم ومعهم وفي طريقهم ومن أجلهم، لا يخرجون أنفسهم من بين الناس ولا يرقبون أمور المسلمين من غير اهتمام، وليس اهتمامهم بأمور المسلمين مؤقتاً أو جزئياً.

{أعزة على الكافرين} لا ينفذ إليهم تأثير الأعداء، مرفوعي الرأس بالفكر الإسلامي الذي حصّنهم بحصن محكم غير قابل للنفوذ والاختراق، {يجاهدون في سبيل الله} من غير قيد أو شرط {ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}.

والآية التي تتلو هذه الآيات تتحدث عن الارتباط والعلاقة بين أفراد المجتمع المسلم وبين قلب المجتمع أي الإمام، وعندما ندقق جيداً في الآيات يتضح أن جملة من المسائل التي يتصور أنها ليست قرآنية هي من صميم المضامين القرآنية ومن الأمور التي بينها القرآن بوضوح وجلاء، ذكر القرآن في ما تقدم من آيات الروابط الخارجية والروابط الداخلية.

وهو يبين في السياق التالي مركز العلاقات الداخلية وقلبها، أي الإمام والقدوة والقائد {إنما وليكم الله} فهو القائم بأمركم وهو الذي ترجع إليه الأمة والمجتمع المسلم في كل الأنشطة والفعاليات، وهو ملهم الأمة، ولكن الله سبحانه لا يتجسم ولا يجلس بين الناس فيأمرهم وينهاهم، فمن هو الولي الآخر {ورسوله} ولا نزاع أو نقاش بين الرسول وبين ربه لأنه نبيه والمبعوث برسالته، وبما أن الرسول بشر ينطبق عليه قول الله في القرآن الكريم {إنك ميت وإنهم ميتون}[5] فهو لا يبقى إلى الأبد. فلا بد إذن من إيضاح تكليف المرحلة اللاحقة لوفاة الرسول، هل هناك ولي ثالث قال الله سبحانه في نفس الآية {والذين آمنوا} هذا هو الولي الثالث، ولكن هل يقوم بأعباء الولاية كل من آمن؟ هل أن ملاك الولاية بدرجة متناسبة مع الإيمان فقط من غير حاجة إلى صفة أو شرط آخر؟ من الواضح أن الإجابة الصحيحة هي النفي؛ لأن ثمة صفات وشروط تذكرها الآية {الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة وهم راكعون} هذه الصفات لم تجتمع إلا في علي(ع)، فالآية تشير إلى علي بن أبي طالب وتعينه ولياً، حيث أن (الواو) في قوله تعالى {وهم راكعون} حالية، فتكون الجملة حال لدفع الزكاة، فليس كل من دفع الزكاة فهو الولي، وإنما الولي هو من دفع الزكاة في حالة الركوع، ولو شكك في ذلك وقيل بأن الآية قد تريد تعيين كل مؤمن ولياً، فأنا أسأل هل ثمة أسوة ونموذج وقدوة يحمل كل مفاهيم الرسالة وروحها مثل علي بن أبي طالب بين المسلمين؟ ليس هناك غير علي، فهو وحده الإمام والانموذج المتكامل للجناح المؤمن المنسجم المتين، ولو فرض أن الآية غير ناظرة إلى علي بالخصوص، فهناك أدلة أخرى على ولايته ذكرها الشيعة مفصلاً في بحث الإمامة، ونحن عندما نبحث هذه المسألة ننظر إلى جانبها الإثباتي، فإنها قضية عقائدية. ولابد للشيعة أن تعرف نفسها وفكرها وترسخ إيمانها وتعمقه أقوى ما تستطيع، ونحن نعتقد أيضاً إلى جانب ذلك أن على الشيعة أن يتركوا معارضة إخوانهم السنة، لأن هناك عدو خارجي يتربص بالمسلمين الدوائر ولا يفصل بين شيعة أو سنة، فعندما تثبت الشيعة عقائدها لا تريد بذلك إلغاء عقيدة الآخرين أو الدخول في خلاف عقائدي معهم. علينا أن نعرف كيف نفهم عقائد الشيعة وأفكارها، لأن التشيع كما نرى ليس شيئاً غير الإسلام وليس الإسلام شيئاً غير التشيع.

والذي ننتهي إليه ونستنبطه ونفهمه من القرآن فهماً صحيحاً ومنطقياً ومتوازناً هو التشيع، وعلى هذا فنحن نتحدث في مجال عقائدنا عن أصول الإسلام وأصول الرؤية الإسلامية الكونية، وليس لكم في هذا أدنى خلاف كما أقطع. إذن ما نبحثه في هذه العقائد هو جانبها المثبت حيث نعرض الإسلام كما نفهمه من خلال المدرسة الشيعية الإسلامية، وليس لنا كلام مع الآخرين الذين يمكن أن يفهموا الأمور بطريقة ثانية.

ليس لنا معهم معارضة أو بحث، لأننا أخوة نمد إليهم دائماً يد المودة والمحبة، ولأن ثمة عدو مشترك خارج دار الإسلام يتربص بنا الدوائر، وليس لنا الحق في أن يضرب أحد رأس الآخر. هذه هي طريقتنا في البحث، والبحث إنما ينصب على التشيع لأصالته، ولأننا شيعة نعتقد أن الإسلام هو التشيع ولا نريد ببحثنا هذا إيقاع الخلاف بين الشيعة والسنة، ليس هدفنا هو هذا أبداً لأن هذا التضارع محرم في رأينا.

{إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}.

لو أن المسلمين التزموا بالولاء والولاية، فما هي النتيجة وما هو أثر الأبعاد الثلاثة المتقدمة للولاية، وهي حفظ العلاقات الداخلية، قطع العلاقات والروابط مع الأجنحة والكيانات غير الإسلامية، حفظ الارتباط الدائم والعميق مع قلب الكيان الأساس وقلب الأمة المسلمة أي الإمام والقائد. الأثر هو ما تذكره الآية الكريمة {ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون}[6].

خلاصة المقالة الثانية

الجبهة الواحدة المتراصة والصف الواحد الذي يشد بعضه بعضاً هما في الحقيقة اللذان يشكلان المدينة الإسلامية الفاضلة، بعد أن يشكلا ذلك الكيان العظيم الموحد وهو الأمة المسلمة المؤلفة من مجموع المؤمنين بدين الله..

وتظهر الولاية في مواضع الأمة الداخلية وفي مواضعها الخارجية؛ ففي الداخل يكون كل فرد وكل جناح في الأمة مسؤول عن تعبئة كل الطاقات والقوى بصورة دقيقة وحساسة حذرة، ثم توظيف هذه القوى في طريق ومسار واحد ونحو هدف واحد، كما أن كل فرد وجناح مسؤول بصورة مؤكدة عن رفع كل مقتضيات الفرقة والتشتت حتى لا تضيع الطاقات وتذهب هدراً. وفي الخارج يكون على الجميع أن يحذروا من إنشاء أي علاقة أو معاهدة أو مودة مع غير المسلمين حتى لا يتعرض العالم الإسلامي لخطر السقوط والذوبان وعدم الاستقلال. وواضح أن حفظ ورعاية هذين البعدين من الولاية (أي الاتصال الداخلي المحكم وعدم القابلية للنفوذ الأجنبي) يستلزم وجود قدرة مركزية ذات سلطة نافذة هي في الحقيقة مظهر لكل العناصر الإيجابية الحية والفعالة في الإسلام، وهذه النقطة المركزية هي الإمام والحاكم الشرعي، وتستلزم هذه الولاية ببعديها أيضاً وجود ارتباط قوي وعميق بين أفراد الأمة وبين الحاكم والإمام أي المحور الأساس لفعالية وأنشطة المجتمع.

وهنا يتجلى بُعدٌ آخر من أبعاد الولاية وهو بعد ولاية (الإمام وقائد العالم الإسلامي).

وفي الآيات التالية إشارات معبرة عن هذه الحقائق الدقيقة:

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء}

{بعضهم أولياء بعض}

{ومن يتولهم منكم فإنه منهم}

{إن الله لا يهدي القوم الظالمين}

{فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم}

{يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة}

{فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين}

{ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين}

{يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون الله لومة لائم}

{ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}

{إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}.

{ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون}[7].

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[8].

أسئلة المقالة الثانية

1 ـ من أجل إقامة الولاية القرآنية، ما هي الجهات التي ينبغي أن تلاحظها الأمة المسلمة؟

2 ـ كيف تنشأ وكيف تكون العلاقات مع الدول غير الإسلامية؟ وهل تؤدي المفاهيم الإسلامية حول الولاية إلى قطع العلاقات مع كل الدول؟

3 ـ كيف نفهم الولاية في القرآن ونثبت أن الولاية التي نفهمها هي عينها ولاية القرآن؟

4 ـ ما هي صفات وشروط الولي التي تستفيدها من الحديث المذكور في المحاضرة؟

5 ـ إشرح بدقة كيفية ارتباط الولي بالمجتمع، وارتباط الأفراد بالولي.

6 ـ اذكر الآيات 51 ـ 57 من سورة المائدة، واشرح الأبعاد الثلاثة للولاية على ضوء الآيات المباركة.

---

[1] ـ سورة البقرة، الآية: 124.

[2] ـ وسائل الشيعة، ج 18 ، ص 95.

[3] ـ نهج البلاغة، الخطبة 175، نسخة فيض الإسلام.

[4] سورة المائدة، الآيات: 51 ـ 53.

[5] ـ سورة الزمر، الآية: 30.

[6] سورة المائدة ، الآية: 56.

[7] ـ سورة المائدة، الآيات: 51 ـ 57.

[8] ـ سورة آل عمران، الآيتان: 102- 103.

المقالة الثالثة

جنة الولاية

لابد من التعرض لأمرين عند بحث الولاية:

1 ـ تعريف إجمالي بالفرد الموالي والمجتمع المتولي (ذو الولاية) والذي تسوده الولاية والتولي والولاء.

2 ـ الدور والأثر المترتب على وجود الولاية في المجتمع.

فالذي يظهر لنا من خلال التدبر في الآيات القرآنية، ومراجعة السيرة الجهادية لأهل البيت (ع) أن هناك أبعاد ومظاهر للولاية.

أ: فمن هذه الأبعاد، أن المجتمع المسلم ليست له علاقة تبعية بالعناصر الغريبة على الإسلام (أي بغير المسلمين خارج دائرة المجتمع الإسلامي)، وأوضحنا أن عدم وجود العلاقة الخارجية والارتباط التبعي مسألة تختلف عن مسألة عدم وجود أي علاقة أو ارتباط بأي نحو من الأنحاء، ونحن لا نقول أن الإسلام والمسلمين يعيشون حالة الانزواء السياسي أو الاقتصادي وليس لهم أي ارتباط مع الأمم والبلدان والقوى العالمية غير المسلمة، بل أن ما ننفيه هو مسألة التبعية والذيلية والذوبان، وما نثبته هو الاستقلال والوقوف من غير اعتماد على الكفار.

ب: ومن أبعاد الولاية ومظاهرها الانسجام الداخلي والارتباط المتفاعل القوي بين العناصر الإسلامية، أي وحدة الصف الإسلامي شعاراً ورايةً، كما ورد في الحديث {مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرهم بالسهر والحمى}[1].

وورد في حديث آخر: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً).

إذن المسلمون في النصوص الإسلامية كالجسد الواحد والبناء الواحد المتداخل الأجزاء والمنسجم والمتراص، وهم كاليد الواحدة تقابل الأيادي الغريبة والأجنبية وتواجه العداءات الفكرية والعقائدية، وهذا ما يستفاد من قوله تعالى: {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين}[2].

وهذا البعد يستفاد بشكل أجلى من قوله تعالى {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم}[3]، فلا ترى من هو أقوى منهم وأكثر ثباتاً وتحصيناً واستحكاماً عند المواجهة مع الأعداء، كما لا تجد من هو أكثر منهم تحفظاً وحذراً من نفوذ كل جسم غريب على الهيكل المسلم، ولكن انظر إليهم كرة أخرى داخل صفوفهم فلن تجد غير الرحمة والمودة والألفة والتعاطف، ولا تجد جبهات متشكلة ضد بعضها البعض، وتجد استحكاماً لا يخترق بين هذه الجبهات والهياكل التي تشكل الجسم الاجتماعي الكبير (أي المجتمع المسلم)، بل إنك ترى صورة تعاكس الصورة الأولى حيث يتأثر بعض المسلمين بالبعض الآخر، وكل يهدي أخاه نحو الخير والصلاح، وهم يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، وكلّ يشجع الآخر ويؤكد عليه بالثبات في المسيرة الكادحة إلى الله في طريق الحق.. كما يوصيه بالصمود في وجه دوافع الشر والفساد، وكل يرعى الآخر ويحفظه حاضراً وغائباً. ولقد قدمت مثال أولئك المتسلقين للجبال، فهؤلاء يتسلقون من بين التعرجات الحادة، فإذا ما تزحلقت من تحت قدم أحدهم صخرة أو حجر أو حصاة فهي كافية لإسقاطه في واد عميق، والسبيل الذي يحفظ لهؤلاء المتسلقين سلامتهم أن يشدوا ظهر بعضهم بظهر البعض الآخر بوثاق محكم قوي تحفظ حالة التجاذب فيما بينهم، وليأخذ كل منهم بيد الآخر، وبين الفينة والفينة ينادي بعضهم الآخر أن احذر ضياع الطريق، لا تتخلف عنا، هل أنت جانع؟ والمسلمون يلاحظون بشكل دقيق الضعيف منهم فكرياً أو مادياً أو بلحاظ معرفة الحق عند ذاك يسعون لهدايته جميعاً، والكل يسعى في سبيل أن يسير هذا الضعيف في الخط المستقيم، ويشكل هذا البعد من المسلمين عائلة تضم أفراداً منسجمين بشكل كامل.

ج: والبعد الثالث من أبعاد الولاية وهو أهمها جميعاً؛ إذ يضمن بقاء الولاية ببعديها الأوليين، هو المركز القيادي المقتدر داخل المجتمع الإسلامي، لأن المجتمع المسلم بحكم الجسد الواحد، وأجزاء هذا الجسد متجانسة متماسكة متفاعلة متعاونة فيما بينها، وهو يد واحدة ورجل واحد بوجه المخاطر الخارجية والأجنحة الكافرة.

وهذه الوحدة في المجتمع المسلم لا يمكن أن تحصل من غير أن تتمركز القوة في محور فاعل، وإذا قدر لكل وحدة اجتماعية أن تدار مستقلة عن الوحدات الاجتماعية الأخرى فسوف تتفرق أعضاء ذلك الجسد الواحد إلى أقطاب متعددة وقدرات غير متوحدة، ولن يسير المسلمون في درب واحد، وسيؤول أمرهم مآل وجود جهازين يديران الجملة العصبية للإنسان، جهاز يدير الطرف الأيمن والآخر يدير الطرف الأيسر، ففي هذه الحالة لن يحصل انسجام بين الطرفين إذا ما أُريد إنجاز عمل واحد.. فلو أراد الإنسان هذا أن يرفع شيئاً من الأرض سوف يجد أن يده اليمنى استعدت لرفعه بينما يجد اليسرى لا زالت منقبضة غير مستعدة للحركة والرفع بأي وجه، وسيختل وضع البدن مع وجود جهازين يديران سلسلة الأعصاب، ويتخذ الإنسان في هذه الحالة وضعاً مضحكاً مزرياً حين يريد إنجاز عمل أو مواجهة عدو، ولن يستطيع.

وإذا أراد المجتمع الإسلامي أن يدفع عدوه في الوقت المناسب فعليه أن يحفظ مركز القدرة والقوة والقيادة فيه، والمواجهة الناجحة مع العدو يلزمها تكتيل وضم كل الأجنحة الاجتماعية ووضعها في خط واحد مواجهة لخط العدو، لتوجه ضربة محكمة قوية لعدوها، وهذا لا يحصل ما لم تندفع هذه الأجنحة بملئ اختيارها لهذا العمل وتلك المواجهة. وقد ذكر مولوي الشاعر الإيراني المشهور قصة تماثل في النتيجة حال الأجنحة الاجتماعية غير الموحدة.. فإنه ذكر أن ثلاثة ذهبوا إلى بستان عنب واستطاع عدو لهم أن يهلكهم جميعاً عن طريق الدسيسة.

وقد تكرر وقوع مثل هذا في التاريخ العام للأمم وفي التاريخ الإسلامي أيضاً. وإذا ما أراد المجتمع المسلم أن يستفيد من طاقاته ويتجنب السلبيات والنقائص، فعليه تحكيم علاقاته الداخلية وتوحيد أعضاء المجتمع كما تتوحد أعضاء الجسد الواحد.. وتتعبأ لمواجهة الخطر الخارجي، والمجتمع الإسلامي يد واحدة مقابل أعدائه.

خلاصة ما نريد ذكره هنا أن المجتمع الإسلامي من أجل تحقيق بعدي الولاية الأوليين عليه أن يملك مركزاً قيادياً واحداً قادراً وفعالاً، وتستلهم كل العناصر الفعالة والنشطة في هذا المجتمع من هذا المركز نشاطها الفكري والعملي وفعاليتها الحياتية وأساليب مواجهة أعدائها وطرق تقوية المحبة والولاء بين أفرادها. وهذا المركز الواقع في عمق المجتمع المسلم هو الذي يتولى إدارة تمام الأجنحة، وهو الذي يحدد لكل فرد عمله ومكانه المناسب، وهو الذي يرفع حالات النزاع والتعارض ويمنع من نشوء هذه الحالات، وهو الذي يسدد كل القوى للمسير نحو غاية واحد وفي مسار واحد. وهذا المركز يعيّنه الله سبحانه، فلابد أن يكون عالماً، واعياً، مأموناً، جامعاً لكل الكمالات التي يخلقها الإسلام، مظهراً قرآنياً حياً. وثقافتنا الإسلامية تطلق على هذا المركز اسم الولي. على هذا يلزم بعدي الولاية بعدٌ ثالث (هو بعد ولاية الولي)..

والمسألة الأخرى التي نبحثها: هي هل أملك أنا أو أنت هذه الولاية؟ من الممكن أن نكون من أهل الولاية كأفراد، ولكن هل أن مجتمعنا يملك هذه الولاية؟ من الممكن أن يقع هذا التساؤل، هل هناك فرق بين ولاية الفرد وولاية المجتمع؟

ولابد من الإجابة بالإثبات، فلو كان ثمة عضو سالم بنفسه فليست سلامة هذا العضو دليلاً على سلامة تمام البدن، هذا أولاً، وثانياً لن يحصل هذا العضو السليم على تمام حسنات وإيجابيات العضو السليم مع وجوده ضمن بدن غير سالم، ولابد أن نعرف ابتداءً كيف تكون محصلة الإنسان المتولي، لنعرف مدى كوننا من أهل الولاية، وإذا كنا من أهلها علينا أن نعرف مميزات المجتمع ذو الولاية، وما هي الشروط الموضوعية التي تؤهله ليكون مجتمعاً موالياً، وليس ثمة ما يمنع من وجود فرد موالٍ في مجتمع غير موال، ومن الطبيعي أن أنظر هنا إلى القضية في عالم الإمكان والثبوت لا في عالم الواقع والإثبات والتحقق، فإن المسألة بهذا اللحاظ في غاية التعقيد.

وعلينا الآن أن نبحث هذه الحالة وهي ما إذا كان الفرد قد تولى وأصبح من أصحاب الولاية، فهل تنتهي مسئوليته؟

هل يمكن أن يكون الفرد من أهل الولاية في مجتمع لا يملك هذه الولاية؟ وهل تكون ولاية الفرد كاملة حين لا يشعر بمسئولية تجاه مجتمعه؟ هذه مسائل يجب على كل المسلمين الرجل منهم والمرأة وخصوصاً الشباب أن يفكروا فيها، ومن المحتمل أن لا يتوفر لي الوقت الكافي لشرح هذه المسائل واحدة واحدة، لأن كل واحدة من هذه المسائل تحتاج في تفصيلها إلى ساعات من البحث والتحليل.

ولهذا سوف أتحدث باختصار وأترك لكم مهمة تفصيل هذه المسائل، والآن أشير إلى المسائل الأربع المتقدمة.

1 ـ كيف نعرف الفرد الموالي وما هي صفاته؟

2 ـ ما هي المقومات التي تجعل المجتمع وهيئاته التي تعيش في مكان واحد من أهل الولاية؟ ومتى يفقد هذه الولاية؟ أي ما هي شروط المجتمع المتولي على ضوء المفهوم الإسلامي للولاية؟ وفي أي الشروط الموضوعية يفقد المجتمع هذه الولاية؟

3 ـ هل تنتهي مسؤولية الإنسان عن لزوم خلق المجتمع الموالي عندما يتولى هو..؟

4 ـ لو كان ثمة إنسان موال على المستوى الفردي وهو يعيش في كنف مجتمع غير موال وهو لا يشعر بأية مسؤولية تجاه هذا المجتمع، هل يضر عدم إحساسه بالمسؤولية بولايته؟ هل أن عدم شعوره بمسؤولية خلق المجتمع الموالي ينقص من ولايته على مستواها الفردي؟

وأنا أطرح عليكم واحدة أو اثنتين من هذه المسائل، وعندما يكتمل البحث ستدركون عمق معنى الولاية وسموه وانسجامه مع مدركات العقل، وكيف لا تتضاد مدركات العقل مع معنى الولاية المفسر قرآنياً وسنة، ولنقارن هذا المعنى مع المعنى المضاد الذي يجعل الإنسان كسولاً قاعداً، يأنس بالراحة والخمول، ولا يأخذ الأمور مأخذ الجد، وسوف تستنتجون من هذه المقايسة أين تبدأ الفوارق واين تنتهي، ويتصور البعض أن التولي لا يعني أكثر من إبراز التعظيم والاحترام لأهل البيت عندما يُذكرون كأن نقول (عليهم السلام)، والمودة والحب القلبي لهم، وطبيعي أن حب أهل البيت فريضة إسلامية وواجب أكيد، ومن الواجبات أن يذكر أهل البيت بالإعظام والإجلال، كما أن إقامة مجالس الوعظ والتبليغ باسمهم أمر عظيم الفائدة، وفي ذلك دروس عالية يستلهمها الإنسان من سيرتهم وحياتهم في وجهها المبكي والمُسر، ومطلوب من المسلمين إقامة العزاء عليهم ومجالس السرور لهم والبكاء على مظالمهم ومصيباتهم، ولكن هذه الأمور ليست هي الولاية، فالولاية أعظم

من هذه الأمور، ويكون قد قام بعمل صالح من شارك في مجلس سيد الشهداء الإمام الحسين (ع) وسالت دموعه حزناً على مقتله ومصابه، ولكن هذا ليس وحده دليل الولاية؛ إذ ليس كافياً لتحقق الولاية أن يبكي الإنسان. وعلينا جميعاً أن ندقق في معنى الولاية؟ ويتحتم ذلك على من أثرت على أذهانهم بعض الأيادي المغرضة منحرفة كانت أو عميلة حيث صورت لهم أن هناك من يخالف في مسألة الحزن والبكاء لمصائب سيد الشهداء، وها نحن نقول ليس هناك من يخالف في ذلك لأن البكاء على مصائب الحسين بإمكانه ضمن بعض الظروف الموضوعية أن ينقذ أمة بكاملها، وقد حدث ذلك للتوابين الذين ذهبوا إلى قبر الإمام الحسين بن علي (ع) وجلسوا يبكون عند قبره يوماً أو يومين أو أكثر، وكان نتيجة هذا النحيب وتلك الدموع والعبرات أن عقدوا بينهم ميثاقاً وعهداً على الذهاب إلى ميدان القتال والمواجهة المسلحة مع الظالمين حتى الشهادة. هذا هو البكاء على الإمام الحسين، وهل يخالف أحد في عطاء هذا البكاء وتأثيراته الفعالة؟! وليس هناك من يخالف في لزوم الإجلال والإعظام عندما يذكر الحسين بن أمير المؤمنين، وكل من يعرف الأئمة (ع) يجزم بلزوم ذكرهم بكل إكبار وإجلال لأن ميراث أهل البيت هو الشهادة، وأعز ذكرياتهم الفداء والتضحية في سبيل الله، وكل وجودهم خالص لله. على الإنسان أن يذكر أهل النبي بكل إكبار.

وليس لهذا الأمر ارتباط بالتشيع ولا بما يناقض التشيع. فإن من المؤكد أن أوربا وأمريكا وكل الأقطار الكافرة حين تطلع على حياة علي بن أبي طالب وشخصيته، فسنجد مظاهر الإعجاب بشخصية علي وأعماله الكبيرة التي أنجزها في حياته بادية في أقوالهم وأفعالهم، وسيظهرون الاحترام والإجلال والتعظيم لعلي (ع) حين يذكر اسمه، بل سيذكرون اسمه باعتزاز وافتخار، وسيبقى اسم علي في ذاكرتهم محفوظاً مثاراً للفخر والاعتزاز.

فليس الأمر إذن خاصاً بالشيعة، وهل تتصور بعد هذا أن الولاية لا تعني أكثر من هذا؟! نعم الإعظام والإكبار للأئمة من شعب الولاية وجانب مهم وخطير من جوانبها يسوق أهلها إلى الجنة، ولكنه ليس كل معنى الولاية وحقيقتها، وعلى هذا يكون حصر التولي بمسائل البكاء على الإمام الحسين (ع) والإعظام لاسمه أمر غير صحيح، ويكون طرحه وعرضه بهذا الشكل كاشفاً عن الجهل إذا لم يكن كاشفاً عن قصد وقلة معرفة إساءة إلى الفكر الإسلامي.

والولاية عند الإنسان بمعنى الارتباط الفكري والسلوكي بالولي، ذلك الإرتباط الذي يشتد ويقوى يوماً بعد يوم. فعلى الإنسان أن يبحث عن الولي ويعرفه ليتبعه في الجانب الفكري والسلوكي والمعنوي الروحي، في المنهج والطريق، وعلى الإنسان أن يحكم الوشائج والعلائق بينه وبين وليه، ويتبعه ويتحرك خلفه، ويجعل جهده جهد وليه، وجهاده جهاده، ومحبته محبته، وعدائه عدائه، وجبهته جبهة وليه، وحزبه حزب وليه، وعندئذ يكون من أهل الولاية، وكيف نكون أولياء لعلي المتولي والموالي من يعرف وليه ويتبعه في أفكاره وسلوكياته، في مسيره ومنهجه، لكننا نحصر الولاية بالمحبة القلبية لعلي بن أبي طالب وبإجراء العبرات والدموع على المصائب التي واجهها وعملنا مباين لعمل علي، وفكرنا ومعرفتنا لا يلتقيان مع فكر علي ومعرفته، وقد نسجنا للولاية شكلاً اسطورياً في أذهاننا، وأسعدنا قلوبنا حين أوحينا إليها أننا من الموالين لعلي (ع) وسيصيبنا ما يصيب أولياء علي من الثواب الجزيل والعطاء المبارك. والله يعلم ويشهد أن هذا ظلم صريح وجفاء واضح لحق علي (ع)، وهو بُعد وهجران لمفاهيم الإسلام، لأن الولاية تؤول في النتيجة إلى الولاء للإسلام، والإمام الصادق (ع) يجعل الولاية هي العمل؛ إذ يؤكد (ع) أن من يعمل صالحاً فهو ولينا ومن يعمل غير صالح فهو عدونا.

بهذا الشكل يشرح الإمام الصادق مفهوم الولاية، ولأن الولاء في ثقافة الإمام الصادق وفكره يختلف عن ذلك المفهوم الذي يحمله الجاهل أو المنحرف، وهو يحيا ويرتزق باسم الإمام الصادق، علينا أن نعمق فهمنا لمعنى الولاية والتولي وإلا سوف نخسر عمرنا الذي قضيناه بأمل الفوز بالجنة وسنشعر بالخسران عندما تبلغ أرواحنا الحلقوم.

التولي والولاء الفردي هو الارتباط والتبعية المطلقة للولي، ولكن ما هي الولاية الاجتماعية؟ عندما يُعرف ولي المجتمع المسلم ثم يكون محوراً لحركة المجتمع وحياته، فهو الذي يوظف الطاقات والأنشطة والفعاليات الاجتماعية، وهو النهر الكبير الذي تتفرع عنه كل الينابيع والجداول، وهو النقطة التي تلتقي عندها كل الخيوط، وهو المصدر لكل الأوامر، وهو المشرف على تنفيذها، والكل يتطلع إليه؛ فهو الجهاز المحرك لكل فعاليات الحياة الاجتماعية، وهو القائد القريب على حركة المجتمع.

كان ثمة أفراد من المسلمين يسيرون في خط الولاية كأفراد مثل أبي ذر والمقداد وسلمان وغيرهم، وحين استلم أمير المؤمنين الخلافة والحاكمية سار المجتمع منذ ذلك الحين في خط الولاية، وأصبح الأمر والنهي بيد الإمام، وفي ذلك الحين ارتبطت كل الخيوط بمركزها الطبيعي وأصبحت الأمور الاجتماعية تدار بإشراف الإمام (ع)، فهو الرافع لراية الحرب، وهو

الذي يعطي الأمر بالهجوم، وهو الذي يوقع ويمضي قرار السلم. في مثل هذا الوضع الاجتماعي يكون المجتمع متولياً وموالياً، وفي وضع مخالف لهذا الوضع لا يكون المجتمع سائراً في خط الولاية، فإذا كان لنا مثل هذا المجتمع فعلينا أن نحمد الله ونشكره على هذه النعمة الكبيرة، وإلا فعلينا السعي الجاد لبناء هذا المجتمع وإنشائه.

وليس ثمة نعمة تضاهي نعمة الولاية؛ فإذا أظلت رؤوسنا فللّه الشكر والحمد، وإن لم ينعم علينا بمثل هذه النعمة فعلينا أن نسير في طريق الحصول عليها في أنفسنا ومجتمعنا. علينا أن نحيا حياة علي (ع) وننهج نهجه ونسير في طريقه الذي سار فيه ونرتبط بعلي ولي الله، وهذا ما يحتاج إلى جهد وكدح ومجاهدة واهتمام على مستوى من يحرق دمه.

لأن الأئمة الهداة (ع) كان كل همهم بعد استشهاد أمير المؤمنين هو السير على خط الولاية، وكانت كل جهودهم مركزة على هدف إحياء الولاية في المجتمع الإسلامي، وليغرسوا ذلك الغرس الذي نسميه الإنسان في مزرعة الولاية. وقد سقوا الولاية بالماء العذب الطهور حتى أينعت وتهدلت أغصانها خضراء باسقة وآتت أكلها كل حين بإذن ربها.. هذا هو عمل الأئمة، وهكذا ينبغي أن يكون عملنا بلحاظ الولاية في المجتمع، ولنرَ ما نعمله حتى نمكن ولي المسلمين من إعمال قدرته وصلاحياته.

وكما قلنا سابقاً فإن هناك طريقين لتعيين الولي، فتارة يعين باسمه وصفته علي، الحسن، الحسين، علي بن الحسين (عليهم السلام).

وأخرى يعين ضمن صفات محددة كما قال (ع): (أما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه)[4].

بهذه الطريقة الوصفية يعين الولي، وهذا التعيين إلهي قطعاً، ولكنه يختلف عن الأول بلحاظ أن الأول تعيين اسمي خاص، وهذا تعيين وصفي عام، وعلى المسلمين تطبيق هذه الصفات على مصاديقها من العلماء، وسنجدها منطبقة على آية الله العظمى السيد البروجردي، وسيرجع الإنسان إلى طريقه المستقيم عندما يجعل همه تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع ضمن دائرة الولاية، وسوف يجد المنهاج والطرق الصالحة لإنجاز هذا العمل، وليس لنا كلام في هذه المناهج والطرق في البحث الحالي. والمجتمع الذي يسير في اتجاه الولاية كالميت الذي تحل فيه الروح والحياة. تصوروا ميتاً ليس فيه حياة، أن له مخ ودماغ وأعصاب ولكنه لا يعقل أو يفكر، وله عين لكنها لا ترى النور ولا تبصر، وله فم لا يتناول الطعام أو يبتلعه، وله معدة وكبد وجهاز هضمي لكنه لا يهضم الغذاء، وله شرايين وعروق فيها دم لكن الدم لا يجري ولا يتحرك، وله يد لكنها لا تستطيع دفع حشرة صغيرة عنها، وله قدم لا تنتقل من الحرور إلى الظل.

لماذا أصبح بهذا الشكل؟ لأنه لا روح في بدنه، أما حين تدب فيه الحياة، فسوف يعمل المخ والأعصاب واليد والفم والمعدة، يستطيع عندئذ أن يفكر، ويمسك بالأشياء بيده، ويأكل بفمه، وتهضم معدته، ويعمل جهازه الهضمي عمله المعتاد، ويتحرك الدم في دورته العادية، ويوصل الطاقة إلى كل أجزاء الجسم، وسوف يشعر البدن بدفء الحياة والحركة، وعندئذ يعمل الإنسان ويتحرك ويواجه العدو وينشأ علاقات المودة، وسيتكامل تدريجياً. ضعوا هذه الصورة أمام نواظركم لتعرفوا أهمية الولاية في المجتمع. ضعوا المجتمع مكان الجسم الميت، ضعوا الولاية مكان الروح والنفس والحياة، فالمجتمع الذي لا يسير في خط الولاية ليس فاقداً للاستعدادات والطاقات الكامنة وإنما طاقاته ميتة ضائعة مهدورة، لا تنفع الإنسان فهي مشلولة بل ستكون ضارة له، فإن للمجتمع مخ يفكر ويحلل، لكنه يفكر في إيجاد الأجواء الفاسدة والقاتلة، وفي وسائل إفناء العالم والكون وشقاء البشرية وتثبيت قواعد الاستغلال والاستكبار والظلم، ولهذا المجتمع عين لكنها لا تبصر ما ينبغي أن يبصر، وترى ما ينبغي أن تغض عن مثله الأبصار، ولهذا المجتمع اذن لكنها لا تسمع مقولة الحق، وعلى الأعصاب أن تنقل هذه المقولة الحقة إلى المخ، لكن المخ لا يأمر الجوارح بالحركة وفق الحق، والجوارح والأعضاء لا تعمل العمل الموافق للحق، والأوضاع السائدة في هذا المجتمع لا تسمح للإنسان بالحركة المطابقة للحق. مثل هذا المجتمع لا يكون سائراً في خط الولاية، وفي هذا المجتمع الفاقد لنعمة الولاية لا تشتعل المصابيح ولا يزداد أو يشتد ضياؤها ونورها، والقطرات الباقية من الوقود في هذه المصابيح تشرف على النفاذ، ثم تجف هذه المصابيح، تلك المصابيح التي عبئها النبي (ص) بالوقود شارفت على الانطفاء وكادت أن تخبو، وقد خبت وانطفأت.

في الأيام التي أعقبت وفاة الرسول كانت هناك شعلة ضئيلة الضياء تنير بعض الشيء، لأن النبي قد عبئها بالوقود، ولكن الوقود نفد بعد ذلك لأن يد الولاية لم تكن تشرف على هذه المشاعل والمصابيح، وامتلأت الأجواء بالدخان الأسود، وزكمت

الأنوف بالرائحة الكريهة، وخبا النور شيئاً فشيئاً حتى جاء زمن عثمان الذي حولها إلى معاوية ورأيتم ما الذي حدث، لقد حدث كل ما أخبرت فاطمة الزهراء عن حدوثه عندما خاطبت نساء الأنصار والمهاجرين، فلم يتعقلن كلامها ولم يسمعنه. ولقد أخبرت الزهراء المسلمين منذ اليوم الأول بما سيحدث ولكنهم كانوا في غفلة، ولم يصلوا إلى مستوى فهم كلام الزهراء، ولقد حدث كل ما قالته، ذلك السيف الصارم البتار الذي يقطر بالدماء، والشفار والمدى التي تقتل الفضائل والكرامات والأصالة، وتلك الأيدي التي تخنق الإنسان والإنسانية. لقد أخبرت عن كل هذا ومنذ اللحظة الأولى فاطمة الزهراء، ولقد أخبر عن هذه الأمور قبل الزهراء أبوها الرسول (ص)، فهما يعرفان ويعلمان بهذه الأمور ولهذا أخبرا عنها. لكن المسلمين لم يفهموا وكانت آذانهم مثقلة لا تسمع، ولا زال صوت الزهراء يرن في المسامع والآذان، فلتسمع الآذان الحساسة المرهفة الواعية، والمجتمع ذو الولاية ينضج كل الطاقات والاستعدادات الإنسانية، ويربي كل ما وهبه الله سبحانه للبشر حتى يصلوا إلى كمالهم المنشود، وينمي غرس الإنسانية ويقويه. الولي هو الحاكم في هذا المجتمع وهو الذي يضع المجتمع في طريق الله وصراطه، وهو من الذاكرين لله في كل الأحوال، وهو المقسم للثروة والمال بالحق، وهو الذي يسعى إلى نشر الخير والصلاح وقلع جذور الفساد والظلم والجهل.

{الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}، فهم يقيمون الصلاة لأنها نموذج لذكر الله والتوجه الاجتماعي نحو الله، فهم يقيمون الصلاة ويسيرون إلى الله ووجهتهم مطابقة لما يريده سبحانه {وآتوا الزكاة} وهم يوزعون الثروة بنحو عادل ويدفعون الزكاة، ومصاديق الزكاة القرآنية واسعة وعديدة؛ إذ يشمل مصطلح الزكاة في القرآن كل أنواع الإنفاق والصدقات المالية. {آتوا الزكاة} يراد منها قطعاً إشاعة العدالة في التوزيع، وقد وردت روايات في الزكاة تفيد أن الزكاة إنما شرعت لحفظ التوازن المالي وتعديل الثروة.

{وأمروا بالمعروف}، ينشرون الخير والعمل الصالح {ونهوا عن المنكر}، ونحن نتصور أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني أن نأمر باجتناب عمل السيئات أو نأمر بإنجاز العمل الحسن، في حين أن الأمر اللفظي والكلامي مظهر وصورة من صور ومظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد قيل لأمير المؤمنين: لماذا تقاتل معاوية؟ فأجاب: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، فاسمعوا جيداً وعوا. قالوا لعلي ما لك ولمعاوية، اذهب إلى الكوفة وليذهب إلى الشام. فقال علي (ع): إن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد نهض الإمام الحسين من المدينة قائلاً: أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

انظروا إلى سعة هذه الدائرة، ولاحظوا كم هي ضيقة في نظرنا. وعلى كل حال عندما تكون الولاية متمثلة في مجتمع ما فسوف يقيم ذلك المجتمع الصلاة ويؤتي الزكاة ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وستدب الحياة في بدن المجتمع الذي كان ميتاً.

خلاصة المقالة الثالثة

تتمثل الولاية في حياة المجتمع عندما يتعين الولي ويكون من الناحية العملية مصدر استلهام لكل الأنشطة والفعاليات الحياتية الاجتماعية.

وتتمثل الولاية في حياة الفرد عند معرفته لوليه وارتباطه به ارتباطاً فعالاً قابلاً للنماء والثبات والاستحكام، لأن الولي مظهر للولاية الإلهية وهو الذي يسعى جاهداً إلى توظيف كل الإمكانات والقابليات التي أودعها الله في الإنسان لكي يصل إلى كماله؛ فهو يسعى إلى توظيف هذه الإمكانات في نفع المجتمع ويحول دون توظيفها فيما يوقع الضرر بالناس، كما أنه يمنع من تبديد هذه الطاقات وإضعافها، لأن هذا يشكل خطراً من أعظم الأخطار. والولي والإمام يُؤمن العدل والأمن الفردي والاجتماعي لتنمو غرسة البشرية، كما أنه يهيأ الأرض الخصبة والمناخ المناسب والماء العذب لكي يشتد عود هذه النبتة الطيبة، وهو الذي يمنع من وقوع المظاهر المختلفة للظلم كالشرك والاعتداء على الغير وعلى النفس، ويسوق الكل نحو عبودية الله، ويربي العقل والمعرفة الإنسانية.

وخلاصة برنامجه الأساسي دعوة الجميع إلى إقامة ذكر الله والعمل والابتكار والإبداع، فهو يدعوهم إلى الصلاة وإقامة ذكر الله، والى تقسيم الثروة العادل وأداء الزكاة ونشر الخير والعمل الصالح والأمر بالمعروف وقلع جذور الشر والسوء والنقص بالنهي عن المنكر، وهذا ما يؤدي إلى تقريب البشرية نحو هدف خلقتها وغاية وجودها شيئاً فشيئاً.

والتدبر في الآيات القرآنية يفتح أمامنا الآفاق الواسعة لجنة الولاية، وكذلك يتوضح لنا معنى ذلك الحديث النابض بالحياة (ليس أفضل من الولاية في الدين كله).

{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم}

{ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}

{كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه}

{لبئس ما كانوا يفعلون}

{ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا}

{لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم}

{وفي العذاب هم خالدون}

{ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء}

{ولكن كثيراً منهم فاسقون}[5].

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء}

{واتقوا الله إن كنتم مؤمنين}

{وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً}

{ذلك بأنهم قوم لا يعقلون}

{قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون}

{قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغَضِب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل}[6].

أسئلة المقالة الثالثة

1 ـ ما هي الولاية الفردية، وما هي مظاهرها؟

2 ـ ما معنى الولاية في المجتمع، وما صفات المجتمع المتولي؟

3 ـ كيف يكون سعي الإنسان للوصول إلى خط الولاية في حياته وفي حياة مجتمعه؟

---

[1] ـ نهج الفصاحة، ص 561 ، الحديث: 2712.

[2] - سورة المائدة، الآية: 545.

[3] - سورة الفتح، الآية: 29.

[4] - الوسائل، ج: 18، ص 95.

[5] - سورة المائدة، الآيات: 78 - 80.

[6] - سورة المائدة، الآيات: 57-60.

المقالة الرابعة

من هو الحاكم على البشرية؟

تعقيباً على البحوث السابقة رأينا أن نشرح جملة من الأمور التي تقدمت الإشارة إليها، فقد تقدم الحديث عن الولاية ومعناها القرآني وموارد استفادة هذا المعنى من القرآن، وتقدم أيضاً الحديث عن أبعاد الولاية وجوانبها، ولكن هناك جملة من المسائل المتفرعة عن الولاية، وهي بلحاظ نفسها مسائل متأصلة ولها استقلاليتها وأهميتها البالغة؛ حيث تعين الخطة والمنهج الذي ينبغي أن يسير عليه المجتمع المسلم. فهنا عدة مسائل مترتبة، فقد أثبتنا فيما تقدم أن القرآن الكريم يجعل حفظ العلاقات والروابط الداخلية، ورفض التبعيات الخارجية للمجتمع المسلم متوقفاً على وجود قدرة مركزية في هذا المجتمع، حتى تقود جميع الأنشطة والفعاليات والواجهات والأجنحة والأوضاع الاجتماعية.

ويسمي القرآن هذه القوة المركزية بالولي أي الحاكم والقائد، والذي تستلهم منه كل القوى خط سيرها وحركتها، وترجع إليه كل الأعمال، وهو الذي يدير المجتمع ويقوده في جانب الفكر والسلوك. فمن يكون هذا الولي؟ لنا إجابة مختصرة حول هذا التساؤل.

فلو قيل لنا نريد معرفة الولي، فهل نستطيع تعريفه لهم؟ وطبيعي أننا عرضنا الإجابة في ما سبق من بحوث وأنتم تعرفون هذه الإجابة؛ إذ هي ليست من الأمور الغامضة، ولكننا نريد تحليل المسألة بشكل منطقي وبصورة طبيعية، والقرآن يجيب بكلمة واحدة {الله ولي الذين آمنوا}[1] الله هو الولي الواقعي للمجتمع، وليس ثمة غير الله يكون حاكماً في المجتمع المسلم. وهذه الإجابة تبينها عقيدتنا في التوحيد وتجعلها النبوة من الأمور المسلّمة الواضحة، ولنرَ هل تثبت لنا الولاية هذه المسألة، ولابد أن تكون الإجابة واحدة لأنه أصول أي مدرسة فكرية وأي عقيدة كونية. ولابد أن لا تتناقض النتائج المستفادة من أصولها المتعددة، ولا يصح أن يستنتج نتيجة ما من أصل من أصول العقيدة ثم يستنتج ما يضاده من أصول أخرى.

وللأسف فإن صورة الإسلام التي تعيش في أذهان وقلوب بعض المسلمين الأغرار البسطاء وساذجي التفكير فيها المتناقضات.

ونعود إلى أصل الموضوع فنقول: إن لله تعالى وحده حق الأمر والنهي والقيادة وتنفيذ الأوامر وتعيين خطة السير للمجتمع، وله وحده حق الحاكمية والتدخل في كل جزئيات الحياة الإنسانية {الله ولي الذين آمنوا}، وقد قمت بمراجعة جميع الآيات التي ترتبط بالموضوع تقريباً وبشكل إجمالي، ولاحظت أن من المسلّمات القرآنية أن الله هو ولي المجتمع الإسلامي وأنه ليس للمؤمنين ولي سوى الله، ويجب أن يكون هو الحاكم في كل الأمور. وأجد من الضروري أن أذكّر هنا بعض من يمكن أن تختلط عليه عناصر هذه المسألة، أن الكلام هنا ليس عن السلطة التكوينية لله رب العالمين فهي في مكانها معلومة ومصونة، فإن الله هو الذي ينظم حركة السماوات والأرض بإرادته القاهرة، إنما الكلام عن القوانين الحياتية للإنسان، والروابط الفردية والاجتماعية، فإن هذه يجب أن تستلهم من الله سبحانه، والله لا غير هو الحاكم في المجتمع الإسلامي.

ولو طرح هذا السؤال ما تعني مقولة أن الله هو الحاكم؟ والله المتعال لا يلتقي الناس وجهاً لوجه حتى يأمرهم وينهاهم، والناس في حاجة إلى إنسان يحكمهم وتفوض إليه مقاليد الأمور، ولا أريد بذلك أن أنفي القيادة الجماعية، بل أريد القول بأن

مقاليد الأمور والحاكمية لابد أن تكون بيد إنسان واحد، ولا يكفي وجود القانون لوحده في دفع الفوضى الاجتماعية حتى وإن كان هذا القانون إلهياً ما لم يوجد ولي أو قائد أو مجموعة قيادية حاكمة تشرف على تنفيذ القوانين في المجتمع.

لكن من هو هذا الإنسان، وكيف يكون، وما هي صفاته؟ ومن هي المجموعة التي يقدر لها قيادة المجتمع البشري؟

وللإجابة على هذا التساؤل قدمت عدة إجابات، كما أنه تعددت الإجابات التاريخية أيضاً، فهناك فئة تقول أن الملك لمن غلب، وهذا هو منطق حكومة الغاب، وثمة فئة تقول أن الملك والحاكمية لمن يتصف بصفة التدبير الدقيق. وفئة ثالثة تقول أن من يوليه الناس ويقبلونه فهو الحاكم. وفئة رابعة تقول أن الحاكم من يملك الذهب والفضة أو العشيرة والاتباع، وهناك من يبرز مقولات مخالفة لهذه.

وأما الإجابة الدينية الإسلامية فهي {إنما وليكم الله ورسوله}، فزمام الأمور الاجتماعية والأمر والنهي وإدارة الأمور جميعاً من ناحية عملية بيد الرسول. وحين يكون الرسول بين ظهراني المسلمين لا معنى لوجود حاكم آخر غيره، والذي يستلم كل القدرات والحاكميات هو الرسول، ولكن عندما ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وهو يموت كسائر البشر، فماذا تكون الإجابة؟ {والذين آمنوا}، من هم هؤلاء، فهل أن كل من آمن بالله ورسوله يكون ولياً وحاكماً على المجتمع المسلم؟ وهذا يستلزم أن يكون هناك حاكمين بعدد المؤمنين، والآية تريد أن تضع علامة على إنسان معين لدى المقنن والمشرّع الإسلامي، كما أنها تذكر علة انتخابه وتعيينه حاكماً، حتى تحدد لنا المقياس والضابط في الولاية والحاكمية؛ فالآية تقول {الذين آمنوا} بصدق وبشهادة العمل والسلوك، وهذا هو الشرط الأول الإيمان الواقعي الخالص.

والشرط الثاني {الذين يقيمون الصلاة}، فلا يؤدونها فقط. وفرق بين إقامة الصلاة وأداءها، وإقامة الصلاة في المجتمع هي إحياء روح الصلاة وانعاشها في المجتمع، وعندئذ يتحول المجتمع إلى مجتمع يقيم الصلاة. وتعلمون أن المجتمع الذي يصلي هو المجتمع الذي يكتنف كل أنحائه وزواياه ذكر الله ويتموج في كل أجزاءه ذكر الله بصورة مهيبة، وفي المجتمع الذي يتموج في خلاياه ذكر الله لا تقع فيه أي جناية أو فاجعة أو خيانة، ولا تمس فيه قيم الإنسان أدنى مساس.

واتجاه هذا المجتمع الذي يتحرك في كل وجوده ذكر الله اتجاه إلهي، ولا يقوم الناس بأعمالهم إلا من أجل الله وفي سبيله وطلباً لمرضاته، والابتعاد عن ذكر الله هو عامل كل أنواع الإذلال والظلم والاعتداء على النفس وعلى الآخرين.

وقائد المجتمع الذاكر لله مثل علي(ع) لا يظلم، بل يحارب الظلم، والرعية فيه مثل أبي ذر الغفاري الذي لم يخضع للظلم ولم يعش تحت كنفه رغم أنه منفي ومبعد عن وطنه، ورغم أنه كان قد تعرض للضرب والإيذاء، ورغم أنه مهدد.. لم يبتعد عن طريق الله ولم ينسه، وهذا المجتمع الذي يذكر الله ويقيم الصلاة هو المجتمع المرضي الذي يتوجه إلى الله.

الشرط الثالث {ويؤتون الزكاة}، يقسّمون الثروة بصورة عادلة ويدفعون الزكاة وينفقون في سبيل الله.

ويضاف إلى هذا الشرط {وهم راكعون} أي في حالة الركوع يدفعون الزكاة، وهذه إشارة إلى ظاهرة واحدة وحالة معينة وقصة فريدة خاصة. وقد قال بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالى {وهم راكعون} أنهم في حالة ركوع في كل شئونهم وأوضاعهم وأفعالهم، فلا تكون هذه الفقرة من الآية إشارة إلى مورد خاص.

أما علماء العربية والمختصون بدراسة الأوضاع اللغوية فيردّون هذا الاحتمال ويقولون أن فقرة {وهم راكعون} حال من قوله تعالى {ويؤتون الزكاة}، فهم يدفعون الزكاة في حالة الركوع. والذي يخطر في ذهني وأحتمله أن المراد بالزكاة مطلق الإنفاق، لأن خاتم أمير المؤمنين(ع) الذي دفعه إلى السائل وهو راكع لم يكن يشمله مصطلح الزكاة، وإنما أنفقه في سبيل الله كما ينفق أي مال غير زكوي، ولأنه أنفقه في سبيل الله سمي زكاة، وتريد الآية الإشارة إلى رجل مؤمن له حب كبير للمساواة وله تعلق قلبي عظيم بالعدالة والإنفاق، وهو يتألم عندما يشاهد فقر الفقير وعوز المحتاج، ولم يستطع أن يصبر حتى يتم صلاته، فثمة جاذبية شديدة للإنفاق في نفس هذا الرجل لم تمهله إلى أن يتم صلاته، وهو متفاعل مع التكليف والتحمل، فقد شاهد فقيراً وشاهد مظهر الفقر الذي لا يحب أن يراه الله، وهو لا يحب أن يرى مظهر الفقر ولم يكن عنده ثروة غير خاتمة، فنزعه وهو في صلاته وأعطاه للسائل. إذن هذه الفقرة تشير إلى عمل ومورد خاص ومحدد في التأريخ قام به أمير المؤمنين ونزلت الآية.

وكما تلاحظون فإن الآية تشير إلى علي بن أبي طالب وتضعه ولياً للأمر، وليس هذا التعيين كالتعيينات التي يقوم بها الأقوياء ذوو البطش والمكر في التأريخ وطواغيت التأريخ وفراعنته، وكما فعل معاوية عندما أراد أن يعين خليفة له حيث قال: خليفتي فيكم ابني فهو الذي يجلس في هذا المقام، والله سبحانه لا يعين لنبيه خليفة بهذا الشكل، وإنما الملاك في الحاكمية هو الإيمان الكامل بالله وإقامة الصلاة في المجتمع وحب الإنفاق وإيتاء الزكاة بالشكل العفوي الذي فعله علي(ع)، وبتعيين الله علياً(ع) بهذا الشكل نفهم الملاك في الخلافة والإمامة وفلسفة ذلك.

وبناءً على هذا، يكون ولي الأمر في الإسلام هو من يعينه الله سبحانه لا غير، ونحن نعرف أن الأصل والأساس الذي نعتمده هنا هو أن طبيعة الخلقة تتنافى مع حاكمية الإنسان على الآخرين، ومن له حق التصرف والحاكمية هو الله سبحانه، ولأن لله حق الحاكمية فهو قادر على تعيين ولي وحاكم على ضوء علمه بالمصالح البشرية ويمنح حق الحاكمية لمن يريد، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وأفعال الله معللة بالحكمة وليست خالية من المصالح الراجعة إلى العباد، وليس الله ديكتاتوراً ولا طاغوتاً ولا مستبداً ولا محتكراً للسلطة حتى يفعل ما يفعل من غير حكمة أو مصلحة، بل أن أعمال الله سبحانه تنسجم مع المصالح الإنسانية، ولأن تعيينه لمن يريد منسجم مع مصالح الناس، فعلينا الخضوع والتسليم لمن يعينه.

فهو يعين النبي والإمام، ويحدد الشروط لمن يخلف الأئمة الهداة المعصومين كقائد في المجتمع الإسلامي، فالله هو الذي يعين الولي، وهو الولي ونبيه ولي أيضاً والأئمة أولياء للأمر، وقد عين الأئمة الاثني عشر أهل بيت النبي وذريته، ثم يأتي من بعدهم من يعين بمعايير وضوابط محددة.

وطبيعي أن هذه آية واحدة ذكرتها لكم، وهناك آيات أخرى في القرآن ذكرنا بعضها في هذه المقالة، وعليكم أن تراجعوا القرآن الكريم للحصول عليها، ولدينا آيات كثيرة حول هذا الموضوع، والأساس الذي يعتمده الإسلام في هذا المجال هو منع وقوع الحاكمية بيد من يقود الناس إلى جهنم.

وقد حدثنا التأريخ عن هذا الأمر، وقد شاهدنا ما الذي فعلوه بالمجتمع الإسلامي بعد صدر الإسلام، والذي حلّ في ذلك المجتمع هو ضياع قدر الرجال الكبار وعظمتهم، وقد استبدل ذلك المجتمع مقاييسه الإيمانية الرفيعة بمقاييس تافهة، ولم يستطع الناس آنذاك أن يعرفوا الناصح والمشفق والمصلح لهم، وكم قد بذلوا من جهود حتى أضلوا الناس إلى هذا الحد، فالإعلام المسموم للسلطات الجائرة أثّر على المجتمع المسلم بشكل رهيب حتى تغير الأفق العلمي للناس، وقد اضطربت رؤيتهم فكانوا يصيّرون السواد بياضاً والبياض سواداً. ومن يراجع تاريخ القرن الأول والثاني الهجريين يصاب بالألم والحسرة لما يشاهده من فجائع ومظالم يرتكبها الجهاز الحاكم مع سكوت المسلمين وعدم اهتمامهم لما يجري، ويعجب الإنسان من هؤلاء الذين لم يصبروا في زمان عثمان على ما وقع من حوادث، فحاصروا عثمان وخلعوه من الخلافة بشكل فجيع، هؤلاء هم الذين يرون الإسراف في إنفاق ومصارف الخليفة العباسي في (حفلة زواج)؛ ففي تلك الحفلة أُنفق ما يكفي لسد حاجة قطاع كبير من المجتمع الإسلامي، فهم يرون هذا الوضع ولا ينبسون ببنت شفة، يشاهدون كيف يصرف مال المسلمين في موارد شخصية وهم لا يحركون ساكناً، فهذا المال ملك لآلاف المسلمين، وها هو ينفق لشخص واحد، ولا أقول يصرفه لرفاهه وسعادته المادية بل لو صرفه لصلاته وصيامه، فهل يجوز له هذا العمل؟ والناس يرون أن هذه الأعمال تقع في المجتمع الإسلامي وهم غافلون غير مبدين لأدنى اهتمام. ولعلي ذكرت لكم في مناسبة ما قصة جعفر البرمكي وهو الوزير المقرب والمحبوب لدى هارون الرشيد بشكل كبير، وكان له من العمر ثمان وعشرون سنة عندما أراد هارون أن يزوجه، غيّر سنة الناس بنثر الحلوى والزهور على رأسي العروسين بسنة أخرى ونثر على رأسيهما شيء آخر، مما أثار استغراب الضيوف وهم أشراف القوم ومترفيهم. وما كان من هؤلاء إلا أن تراكضوا فجمعوا ما وصلت إليه أيديهم.

فما الذي شاهدوه؟ لقد رأوا علباً صغيرة بقدر الإصبع مصنوعة من الذهب الخالص، وعندما تفتح العلبة تستخرج منها ورقة رقيقة، ثم تفتح هذه الورقة لتصير هي نفسها ورقة كبيرة لكنها عندما تطوى تتحول إلى ورقة صغيرة جداً، وقد كتب فيها صدر الأمر بأن تكون مالكاً للمقاطعة الكذائية، أو ذلك القسم من البلاد ملك لك.

والله يعلم كم من اسناد الملكية قد طوى بذلك الشكل الغريب ليوضع في تلك العلب الذهبية، وأما الذين أخذوا هذه العلب، فالخليفة لا يعرف من هم، ولنفرض أن سند أملاك الأرض الكذائية قد وقع في يد طفل، أو سكير قاتل، أو إنسان تافه حقير، وهؤلاء الذين لا يعرفهم الخليفة سوف لن يحرمهم مما حصلوا عليه، فكل منهم سوف يملك الإقطاعيات الواسعة، وبهذا العمل كم من الحقوق سوف يضيع، وكم سيذهب هدراً من الثروات، وما أكثر الحرمان الذي سيصيب كثيراً من الناس. لم يكن كل هذا محطاً لتفكير هؤلاء وليس مهماً عندهم، في مثل هذا الترف والإسراف يعيش أحد العلويين وهو يحيى في جبال طبرستان

وهو يقاوم الظالمين، وكان ليحيى رداء واحد يلبسه عندما يصلي ثم يعطيه لزوجته لتصلي فيه، كانت ذرية النبي تقاوم الظالمين وهم في مثل هذه الحالة من الفقر، وكان الناس يعيشون هذه الأوضاع ولا تثير اهتمامهم، لست أريد انتقاد هارون أو أشكوه أو أعاتبه، فإنه إذا لم يقم بمثل هذه الأعمال فليس بهارون.

والطبقة التي ينتمي إليها هارون حين تكون هي الحاكمة. فستقع هذه الأعمال والمآسي فلا عجب ولا عتاب مع هؤلاء، ولكن اللوم يقع على عامة الناس الذين نسوا التاريخ المشرق لصدر الإسلام ونقائه وخلوصه وفقدوا ذلك الوعي والتيقظ، والفهم الراجح الذي كان صفة بارزة من صفات مسلمي صدر الإسلام، ولهذا فلا يشعرون بالأهمية لما يقع، ولا يحسون بمسؤولية التغيير عند مشاهدة الظلم والمآسي، ولا يتألمون لما يقع. لماذا وصل بهم الأمر إلى هذا الحد؟ كان ذلك نتيجة الإعلام المزيف الوضيع، وهذا نتاج طبيعي لعمل المؤسسات التبليغية بين صفوف الناس، وهكذا عملت هذه الأيادي التبليغية سنوات متعددة متطاولة في أقطار المجتمع المسلم والبلاد الإسلامية، فهم يؤثرون على فكر الإنسان وروحه وشخصيته حتى وصل الأمر إلى الوضع الفعلي للمسلمين.

وبهذا تدركون أهمية اتصاف الحاكم في المجتمع الإسلامي بشروط معينة، وضرورة تعيينه من قبل الله سبحانه. ويقول القرآن في آية أخرى {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[2]، فمن هم أولي الأمر الذين يلزمون الناس بأوامرهم؟ يتخيل السطحيون من المسلمين أن صاحب الأمر كل من يستطيع أن يصدر أمراً ولو استخدم القوة، ونحن نجيب بالنفي لذلك؛ فليس مثل هذا ولياً لأمر المسلمين، وإذا كان الأمر بهذا الشكل، وإذا كان القرآن يقصد هذا المعنى فالذي يترتب على ذلك هو أن يكون اللص وقاطع الطريق الذي يعيش في ذلك الجبل أو القرية من أولي الأمر، لأنه يتصرف في منطقته كيف يشاء، ويجب أن يطاع حينئذ لأنه من أولي الأمر. والله سبحانه هو الذي يصدر أمراً بتعيين أولي الأمر حسب عقيدة الشيعة، وهذا ما تريده الشيعة، فالحاكم هو ذلك الفرد الذي يشكل جزءً من المجتمع المسلم لكنه معين من قبل الله سبحانه، وهو صاحب الولاية الكبرى، وهل يصلح مثل هارون الرشيد لمنصب ولاية الأمر وهو الذي كان في ذلك الوضع المنحط، ومع إسرافه وتصرفاته غير المسئولة، ومع طبيعته الدموية القاسية حيث قتل جعفر البرمكي ومجموعة من عشيرته في يوم واحد شر قتلة، وهذا ما فعله أيضاً بكثير من المؤمنين إلى غير ذلك من جرائمه، ويقول القاضي والمفتي في ذلك العصر أن هارون هو ولي الأمر، والمواجهة الحادة مع الإمام الكاظم(ع) كانت نتيجة لهذا الفهم، فهم يسألون الإمام لماذا تضع نفسك في مواجهة مع ولي أمر زمانك وهم يقصدون بذلك هارون. نظرية الشيعة في هذا المجال نظرية دقيقة، وهم يستنبطون ضرورة التعيين الإلهي للإمام وولي الأمر من القرآن الكريم، ويستنبطون الملاكات والضوابط التي يضعها القرآن الكريم تحت نظر المسلمين حتى لا يخدعوا وحتى لا يقولوا نضع علياً(ع) فوق رؤوسنا وتحت أحداق عيوننا، وكذلك يفعلون مع من يخلف علياً وإن كان هارون، وقد قال المنصور العباسي نحن نرضى بخلافة الحسن(ع) ولكنه باع الخلافة بالمال ولهذا فليس له الحق في الخلافة، ونحن أخذنا الخلافة بالقوة من أولئك الذين باعهم الحسن هذه الخلافة، فهي لنا يظهر على هؤلاء المخدوعين أنهم يقبلون خلافة علي(ع) ويرتضون المنصور العباسي خليفة لعلي ونائباً عنه، ولا يشاهدون أي تباين فكري أو سلوكي بين الاثنين. ولكن الشيعة يرفضون هذا المنطق الأعوج ويخطئونه، ويقولون مع قبول حكومة علي(ع) يجب الالتزام بمعايير وضوابط الحاكمية والولاية، وعلي(ع) إنما انتخب خليفة لاجتماع هذه الملاكات في شخصيته، وإذا كان ثمة من لم تجتمع في ذاته هذه الضوابط أو كان يتصف بما يضادها فليس له حق التولي والحاكمية على المسلمين، وليس لأحد الحق في الأخذ منه والقبول بولايته.

هذا هو أول الأمور التي تظهر من مسألة الولاية. وطبيعي أننا أشرنا إلى الأمر الثاني وذكرنا الآية التي تحدده، فلو سأل سائل عن الدليل على أن ولاية الأمر تحت الاختيار والاصطفاء الإلهي، فسيكون الجواب أن هذا نتيجة طبيعية للفهم الذي أوجده الإسلام؛ فإن الرؤية الكونية الإسلامية حددت هذا بوضوح، وأن كل شيء في الكون أنما يخلق ويوجد بقدرة الله ومشيئته ويستحيل أن يخرج عن قدرته.

{وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم}[3]، وما دامت كل الظواهر الكونية بيده فله الحاكمية التكوينية على كل شيء، كذلك يكون الأمر في الحاكمية التشريعية والتقنينية إذ لا فصل بينهما. ولنلتفت إلى هذه الآيات {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا}[4]، إن الله يأمركم لأنه سميع بصير، يسمع نداءات حاجاتكم الداخلية والباطنية، وبصير بحياتكم فيعطيكم ويهبكم ما تحتاجون إليه.

وهذه الآية تتحدث عن الإمامة أولاً وتأمر بإعطائها لأهلها، وهي تهيأ المناخ للآية الثانية. وعليّ أن أذكر هنا أن الأمانة لا تعني فقط أن ترد عليّ ما وضعته بيدك كأمانة ووديعة، بل أن أهم نماذج الأمانة، الأمانة الإلهية المودعة بين الناس، وعلى

المسلم أن يضعها في مكانها الطبيعي وبيد أهلها، وطاعة الإنسان لله ميثاق الله مع عباده، فعلى الإنسان أن يفي بما عاهد عليه الله، وعليه أن يضع أمانته في مكانها في الواقع، وكما هي عند الله فهو يطيع الله ويطيع من أمر الله بطاعته. هذا هو أهم مصاديق الأمانة، وفي الآية الأخرى يقول القرآن {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[5]، وهنا يبرز وجه الاختلاف بين النظرية الإسلامية وبين النظريات الأخرى.

والنظرية الإسلامية لا تقول سوف يأتي يوم لا يحتاج الناس فيه إلى حكومة وسلطة، في حين نرى أن بعض المدارس الفكرية ترى أن المجتمع سوف يصل إلى درجة المثالية. ومن سمات هذا المجتمع وخصائصه أنه لا يحتاج إلى حكومة وسلطة، وهذا أمر لم يتبناه الإسلام والمقنن الإسلامي، وقد قال الخوارج بدعوى الحكومة الإلهية أن علياً ليس له الحق في أن يكون حاكماً ويجب قتاله إذ لا حكم إلا لله.

وقد قال علي جواباً على ذلك(كلمة حق يراد بها باطل)[6]. نعم كلام الخوارج حق فالله هو الحاكم الواقعي وبيده التقنين وهو مصدر الوجود والحياة وبيده كل جزئيات الأمور، لكن هؤلاء لا يقولون لا حكم إلا لله وهم يريدون بذلك(لا إمرة إلا لله)، والحكومة والقانون بيد الله.

ولكن من هو منفذ القانون؟ فهل تقولون أن غير الله لا يستطيع تنفيذ القانون ثم يقول لابد للناس من أمير فالمجتمع يحتاج إلى قائد وحاكم، ولا يكفي وجود القانون بل لابد من وجود شخص ينفذ هذا القانون ويشرف على تنفيذه كاملاً.

وهذا هو مفاد قوله تعالى {وأولي الأمر منكم}، ولو استفيد أن المراد مطلق من يكون له سلطة ونفوذ وقوة، فيجب طاعة كل من يصدر أمراً، عندئذ ماذا نقول بشأن ما يقع كثيراً من وجود آمرين يصدران أوامر متعارضة، فهل كون كل منهما ولياً للأمر؟! وكثيراً ما يشاهد أيضاً أن هناك من يأمر بما يخالف العقل، والعقل المفكر لا يخضع أو يمتثل مثل هذا الأمر بل ينفيه، وهنا يبرز الاختلاف الأساسي بين المنهج الذي نفكر على ضوئه وبين منهج آخر؛ فنحن نقول هناك ضوابط تحدد أولي الأمر والقادة، أما غيرنا فلا يشترطون ذلك عملياً ولا يعملون به. {فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا}[7] أي أحسن عاقبة ومستقبلاً.

انظروا كيف يلفت القرآن أنظار الناس وعقولهم نحو العواقب الحسنة والقيادات الصالحة، ونحو العواقب الوخيمة والقيادات غير الصالحة.

ثم تذم الآية اللاحقة كل من يتخلف عن هذا القانون الشامل {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت} فيرجعون إليه لرفع النزاع وفض الخصومة، ويستلهمون منه الرأي، ويتلقون منه الأمر، ويعيشون وفق نظريته ورؤيته، وهذا ما ينافي الإيمان.

{يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً}. الضلال هنا بعيد ومستقبلي، وأنا أحتمل أن الشيطان هنا هو الطاغوت لا غير، فهؤلاء يريدون الرجوع إلى الطاغوت غافلين عن أن هذا الشيطان والطاغوت يريد أن يضلهم عن الطريق المستقيم ويقودهم في متاهات الغواية والضياع، ويبعدهم عن الاستقامة فيصعب عليهم الرجوع إليها إلا مع الجهد الكبير.

والأمر الآخر الذي يترتب على الولاية الإلهية هو أن هذه الولاية وتحملها من قبل المؤمنين مرتبط بالنظرة الكونية الإسلامية، ومن الطبيعي أن تقول أن الله يجب طاعته فهو ولي الأمر.

هذه هي فلسفتنا الطبيعية ونظرتنا الكونية لأن كل شيء لله، وتوضّح هذا الأمر الآية الكريمة {وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم}[8].

خلاصة المقالة الرابعة

تطرح حول الولاية مع سعتها وشمولها كما عرضها القرآن مسائل متعددة قد تكون هذه المسائل أصولاً مستقلة في معرفة الأسس والأهداف الإسلامية.

ويمكن فهم بعض هذه المسائل مع التدبر البالغ في الآيات القرآنية:

1 ـ الولي في المجتمع الإسلامي هو القوة التي تقود وتدبر كل الفعاليات والنشاطات الفكرية والعملية، والولي هو الله ومن يعينه الله باسمه أو أوصافه {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا} .

{الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}[9].

{إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً}.

{يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم إن، كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً}.

{من يطع الرسول فقد أطاع الله}.

{ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً}[10].

{ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً}

2 ـ الولاية الإلهية وقبولها من قبل المؤمنين تنشأ من فلسفة الإسلام وأسس نظريته الكونية، وحينئذ يكون الولاء لله ولأوليائه أمراً طبيعياً.

{وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم}

{قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم}

{قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم}

{ولا تكونن من المشركين}[11].

أسئلة المقالة الرابعة

1 ـ حدد المعنى الذي تحدثنا عنه للولاية في ما تقدم من مقالات؟

2 ـ الله هو الحاكم المطلق، ماذا يعني حصر الولاية به، ولماذا كان الأمر كذلك وكيف تتحقق حاكمية الله؟

3 ـ هل للإنسان الحكم والتسلط على أخيه الإنسان بحسب طبيعة الخلقة؟ ومع الإجابة بالنفي كيف نفهم ولاية النبي والأئمة والفقهاء؟

4 ـ ما هو جواب القرآن عن السؤال التالي: من هو الحاكم والولي على المجتمع المسلم؟

5 ـ من هم أولو الأمر الذين عنتهم الآية {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}؟

6 ـ ما هو أهم مصداق للأمانة الواردة في الآية 58 من سورة النساء؟

7 ـ وضّح (المقالة الرابعة) مستنداً إلى الآيات 58-60 من سورة النساء؟

---

[1] ـ سورة البقرة، الآية: 257.

[2] ـ سورة النساء، الآية: 59.

[3] سورة الأنعام، الآية: 13.

[4] ـ سورة النساء، الآية: 59.

[5] سورة النساء، الآية: 59.

[6] ـ نهج البلاغة، الخطبة الأربعون.

[7] ـ سورة النساء، الآية: 59.

[8] ـ سورة النساء، الآية: 60.

[9] ـ سورة الأنعام، الآية: 13.

[10] سورة المائدة، الآية: 55.

[11] سورة النساء، الآية: 80.

المقالة الخامسة

حول الولاية

فهمنا لحد الآن إن على كل مسلم وكل من يدعي العبودية لله أن يجعل وليّه وصاحب أمره واختياره في كل فعالياته ونشاطاته، في تمام شؤون حياته وعلى مدى عمره هو ذلك الولي الذي يعينه الله سبحانه، فهو طوع أمر القائد الذي ينصبه الله ويعينه، والخلاصة أن المحور والحاكم في جميع فعالياته الحياتية هو الله ومن يعينه الله خليفة عنه.

وطبيعي أننا بحثنا عن مَن يعينهم الله سبحانه خلفاء عنه وأولياء على الناس وعن خصائصهم، وقلنا إن الأنبياء هم أول من يعينهم الله أولياء له على الناس ثم الأوصياء والأئمة، وقلنا إن الأولياء تارة يعينون بأسمائهم وأخرى بصفاتهم. هذه مطالب اتضحت فيما سبق.

والمطلب الذي نتحدث عنه الآن يتضمن عدة مسائل:

1 ـ حكم مَن يتخل عن قبول ولاية الله ويخضع لحاكمية غير الله.

ـ ماذا يصطلح على مثل هذا العمل؟

3 ـ ما هي النتيجة المترتبة على هذا العمل؟

وهذه المسائل متفرعة عن الولاية ومن تبعاتها، وتكون من الأصول الإسلامية الثابتة بعد قبول أصل الولاية وإن كانت مسائل فرعية وجانبية حين يقع البحث عن أصل الولاية وقبل إثباته، فهي أصول بلحاظ ذاتها وإن كانت فروعاً قبل البحث عن أصل الولاية. والقرآن يصطلح على كل ولاية غير ولاية الله بالطاغوت؛ فهو يؤكد أن من لا يخضع لولاية الله وحاكميته فهو خاضع لولاية الطاغوت وحاكميته. فما هو الطاغوت؟

الطاغوت مشتق من مادة الطغيان، والطغيان هو التعدي والخروج على الحدود الطبيعية والفطرية للإنسان؛ فلو أن الإنسان الذي خلق ليصل إلى كماله الممكن خرج على هذا الهدف فهو طاغوت، وعلى الناس أن يعيشوا وفقاً لرسالة الله ودينه، وهذا أمر طبيعي وفطري ومطابق لخلقه الناس. والطاغوت هو ذلك الشخص الذي يستخدم مختلف الوسائل من أجل أن يجعل الناس يسيرون على خلاف نهج الله ورسالته ودينه، وعلى الإنسان أن يسعى بكل ما أوتي من قوة من أجل أن يجعل وجوده مثمراً منتجاً، وكل دافع يتنافى مع جدية الإنسان وجهاده وكدحه ويدعوه إلى الكسل والتواني والخمول وطلب العافية فهو الطاغوت، وعلى الناس أن يخضعوا لشريعة الله ورسالته ومنهجه، وكل من يمنع الإنسان عن طاعة أمر الله ويدعوه إلى المعصية فهو طاغوت. إذن فليس الطاغوت اسماً خاصاً وليس صحيحاً ما يتخيله البعض من أن الطاغوت اسم لصنم معين، نعم يطلق على الصنم ويسمى الصنم به لكنه ليس صنماً معيناً. وقد يكون الإنسان نفسه صنماً وكذلك ثروته وحياته العاطلة المتراخية المترفة وكذلك أمانيه وآماله، وقد يضع الإنسان يده بيد إنسان هو صنم يغمض عينيه ويضع كل ما لديه بيده، وقد يكون الصنم هو الذهب والفضة أو النظام الاجتماعي أو القانون، فليس الطاغوت اسماً لشيء محدد خاص. والذي يستنبط من القرآن الكريم أن الطاغوت مقام فوق مقام الملأ وأشراف القوم والمترفين والجبارين والرهبان، وهذا بحث غير بحثنا ولسنا بصدد الحديث عنه. وعلى هذا فكل من يخرج عن ولاية الله وحاكميته فلابد أن يدخل في ولاية الطاغوت والشيطان. أما ما هو الطاغوت والشيطان وما هي النسبة بينهما؟

لأن الشيطان هو الطاغوت والطاغوت هو الشيطان كما يقول القرآن {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت}.

ثم يقول {فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً}[1] مكر الشيطان وحيلته وتدبيره وخططه ضعيفة، وتلاحظون أن القرآن استعمل كلمة الشيطان مكان الطاغوت، والطاغوت بدل الشيطان. إذن فالشيطان كائن وعنصر خارج وجود الإنسان ويعمل على إغوائه وإغرائه على الوقوع في المعصية والظلم والفساد والانحطاط والذلة والتبعية والانحراف، ويدعوه إلى القيام بالأعمال الفاسدة والشريرة، وهناك شياطين من البشر ومن الجن، هناك شياطين بيننا من أقاربنا وأرحامنا، ومن الرجال والنساء، ومن مصاديق الشيطان إبليس الذي وقف مخالفاً لصفوة الله آدم (ع) حيث اعترض على أمر الله سبحانه بالسجود عند خلق آدم.

وأنا وأنتم على مدى حياتنا وسني عمرنا نلعن إبليس الشيطان الأول المطرود من الجنة، في حين أنه ليس الشيطان منحصراً فيه، ويحتمل أن الشياطين لم تبتدأ بإبليس ولن تنتهي به أيضاً؛ فالشياطين في العالم كثيرة يلمسون ويحسون ويدعون، ويشد على أيديهم، كذلك يرون بالعين، وفي بعض الحالات يعاصرهم الإنسان ويعايشهم. وبنحو كلي تكون الولاية غير المرتبطة بالله ولاية الشيطان والطاغوت، والذي لا يعيش ضمن القانون والأمر الإلهي وتحت ولاية الولي الحقيقي عليه أن يعلم أنه سيحيا ضمن دائرة القانون الشيطاني والطاغوتي، ويمكن أن تسألوا عن المفسدة في حياة الإنسان ضمن دائرة ولاية الشيطان والطاغوت. هذا مطلب ضمن مطالب بينتها الآيات التي تقدمت.

فالقرآن يوضح أن ولاية الشيطان حين تهيمن على الإنسان فسوف تتسلط على تمام الطاقات الحية والفعالة والخلاقة والمثمرة، وسوف يتسلط على كل وجود الإنسان الذي يحني رأسه للشيطان والطاغوت، فسوف يلف الشيطان عنقه ورقبته بحبل ولايته المحكم، ولن يجد الإنسان منه خلاصاً؛ فالشيطان يقبض بيده على كل القوى والابداعات والفعاليات الحية ومظاهر الوجود الإنساني المشرقة. وفي الوقت الذي يسيطر الشيطان على تمام الوجود الإنساني فسوف يقوده بيسر ومن غير مواجهة في الطريق الذي يريده، وسوف يقوده بكل وسيلة يريدها الشيطان حيث يشاء. ومعلوم أن الشيطان لا يهدي الإنسان نحو النور والمعرفة والراحة والرفاه، لأن هذه ليست من أهداف الشيطان، بل أن الهدف الأساسي عند الشيطان والطاغوت هي المصالح الضيقة، فهو يسعى إلى تحقيقها، ويدعو الإنسان إلى طريق مصالحه الشخصية. ولو تدبرتم في هذه الكلمات الدقيقة سوف ترون أن لكل جملة معنى ينطبق على الواقع التأريخي في مراحله المختلفة، فإذا خضع الإنسان لولاية الطاغوت فسوف يتسلط الطاغوت على تمام الطاقات والقوى والاستعدادات والإبداعات الإنسانية.

ومع تسلط الشيطان على الإنسان لن يسعى لتحقيق منافعه وخيره وكماله، فإن الشيطان يسعى إلى تحقيق مصالحه هو، فإذا وقع الإنسان في طريقه فسوف يضحي به لتحقيق مصالحه ومنافعه ويجره إلى الضلالة والغواية، فالقدرة تكون بيده.

فالآية التي سأتلوها عليكم من سورة النساء تستحق التأمل والدراسة والتدبر الدقيق {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً}[2].

وحين يدقق الإنسان في التاريخ يرى بوضوح تحقق هذا الكلام الإلهي، وهذه مسائل مهمة أهمية بالغة فهي ذات أبعاد اجتماعية خطيرة، ولم نبحث عن هذه المسائل من وجهة نظر القرآن بصورة تستحق الذكر وقليلاً ما طبقناها على تاريخنا الإسلامي، وكم هو جميل أن يقوم ذوو الاختصاص والعلاقة بالقرآن الكريم والمتمرسون بدراسته، والمختصون بالمسائل الاجتماعية والتاريخية وخصوصاً قصص القرآن بالتدقيق في هذه المسائل من وجهة نظر القرآن ومقارنتها بالواقع التاريخي.

أريد أن أعرض عليكم صفحات من التاريخ لإيضاح معنى هذه الآية.. مدينة الكوفة من المدن المثيرة للعجب البالغ في تاريخ الإسلام وأنتم تحملون صور وخواطر مختلفة عن الكوفة، وما أقوله ليس فيه جديد، فأمير المؤمنين (ع) اختار الكوفة عاصمة لخلافته من بين أقطار ومدن الدولة الإسلامية الواسعة. وهذا من مميزات الكوفة، وقد اشترك أهل الكوفة في حروب أمير المؤمنين، فأكملوا حرب الجمل والنهروان.

وقد اشتركت مجموعة من القبائل التي تعيش في أطراف الكوفة في معركة صفين، وهؤلاء الرجال من الكوفة وغيرهم أتموا تلك الحرب، وقد كان أمير المؤمنين (ع) يشكو منهم ويلومهم قائلاً (لماذا لا تأتون حين أدعوكم إلى الحرب؟). وكان كبار أهل الكوفة وأشرافهم هم الذين كتبوا للإمام الحسن كتاباً طالبين إليه المجيء حتى يمكنوه من أن يحكم مدينتهم لكنه لم يستجب، ونفس أكابرها كتبوا للإمام الحسين بن علي (ع) أنه ليس علينا إمام وحاكم وقائد والله قد أهلك ذلك الطاغية فأقدم علينا، وقد قالوا ذلك حقاً وصدقاً، فإن فيهم سليمان بن صرد وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وغيرهم، وأهل الكوفة أنفسهم وقفوا صفاً غير متوازن بوجه الإمام الحسين وارتكبوا تلك الفاجعة النكراء، وهم أنفسهم الذين قاموا بعد مدة قليلة من جريمتهم هذه بعمل مشرق وضاء نادر الحدوث في التاريخ الإسلامي؛ ذلك هو ثورة التوابين الذين خرجوا على الظالم طلباً للتوبة، ولأنهم لم يصلوا لنصرة الإمام الحسين في يوم عاشوراء. وقد بذرت في نفس هذه المدينة بذور أغلب الثورات ضد بني أمية وبني العباس وقد نمت تلك البذور، وانتصرت تلك الثورات، فكم قدموا من المضحين وكم قُتِل منهم، وكم قدموا من أعمال مثمرة كبيرة، ولكن من بين هؤلاء تبرز أحياناً أنواع من الضعف والكسل والخور والقصور الروحي والمعنوي، لماذا؟

هل لهؤلاء قلبان وروحان ووجهان؟ وتاريخ الكوفة مهم جداً، وأنا أرى أن البحث في الكوفة والدراسة النفسية لتلك المدينة بحث مهم ونافع وعمل عظيم ذلك الذي ينجزه المتخصصون والمحققون وعلماء النفس والاجتماع، حين يدرسون تاريخ الكوفة وأوضاعها ويفكرون في ذلك، وعندئذ يوضحون ما يثير العجب من وجود مظاهر عظيمة ومضيئة للنفس الإنسانية، ومن وجود مظاهر هزيمة الوجدان والشرف وظهور حالات الضعف والتكاسل، لماذا حدث هذا؟

الكوفة مدينة ولدت تحت ظل كلمات أمير المؤمنين الواضحة المتينة.

وهل أن المحيط والبيئة هي التي تصنع الإنسان؟

الرجال العظام والمتحمسون في تاريخ الشيعة هم من الكوفة وهم أكثر من شيعة المدينة المنورة، والسبب في ذلك هو التعليمات والدروس العظيمة التي غذاهم بها علي (ع) في السنوات المعدودة التي لبث بينهم فيها، وليس سهلاً أن يحكم فرد مثل علي بن أبي طالب في المدينة.

صحيح أن حكومة علي (ع) في تلك السنوات الأربع كانت ضعيفة في العالم الإسلامي، لكنها كانت غير قاصرة أو ضعيفة في مدينة الكوفة، وكانت تظهر فيها ظواهر عظيمة فتحولت إلى مهد للتشيع وموطن للفضائل والأخلاق الشيعية، وليس ضرورياً في موطن الفضائل أن يكون كل أهل ذلك الموطن من أهل الفضيلة والأصالة والمثالية، ففي المجتمع الثائر المتحمس تبرز طبقة واحدة من الناس يحملون الحماس والثورة.

ويحدث أحياناً أن يكون بين ملايين من البشر عشرات محدودة من الآلاف هم الذين يقومون بعمل بطولي، ولكن البطولة والثورة والشجاعة تسجل في حساب الملايين، وكذا مدينة الكوفة فإنه كان فيها مجموعة تستحق التقدير والإعجاب وليست الكوفة بدعاً من بقاع الأرض وأقطارها ليس فيها مجموعة صالحة، كلا.. فإن فيها مجموعة صالحة كما أن في أي بقعة من الأرض توجد مجموعة صالحة ثائرة، وليس أهل الكوفة أسوأ من غيرهم. كلا.. فأهل الكوفة مثل أهل مشهد وطهران وأصفهان والمدينة المنورة وكأهل أي مدينة أخرى.

ولكن لأن هذه المجموعة المحدودة العدد التي تعيش في زاوية من العالم الإسلامي أعني الكوفة كانت مثار خوف الحكومات آنذاك، لهذا كانت الحكومات تعين عليهم أقسى الولاة والقادة وأحط الجواسيس والعيون والعملاء وأغلظ الجلادين، فأعملوا فيهم سياسة قاسية صارمة، أجروا بينهم إعلاماً مسموماً فاسداً، وضيقوا عليهم في المجال الاقتصادي حيث أخذوا الناس بسياسة التجويع، مما أدى بالناس بطريقة غير مقصودة أو متعمدة إلى القيام بالأعمال الفاسدة المنحطة.

ولم تكن مثل هذه السياسة تجري في سائر المدن والعواصم الإسلامية الأخرى، لأن تلك المدن كانت تفقد مثل تلك المجموعة الشجاعة الثائرة لأمير المؤمنين، وكان هدف الحكومات من إجراء تلك السياسة هو تفويت الفرص المناسبة التي يمكن أن يستفيد منها أولئك الرساليون المجاهدون.

ولهذا اتبعت الدولة سياسة إعلامية مسمومة، وأجرت سياستها الاقتصادية القاسية بالتجويع وقطع العطاء أو تقليله، وكذلك حكمت الناس بسياسة التخويف والرعب والضغط.

وخلاصة الأمر أنهم استعملوا مع أهل الكوفة مختلف أساليب الضغط، ولم تكن المدن الأخرى في مثل هذا الوضع المفجع، وكانت الأعمال غير الصالحة تصدر من عامة أهالي الكوفة نتيجة هذه السياسة الظالمة والنادرة الحدوث، فليس منشأ الفساد عند أهل الكوفة هو المدينة التي يسكنونها، هذا عرض مختصر لتاريخ الكوفة، وفي رأيي أن من يطالع التاريخ ويحلله سوف يحصل على نتائج مثيرة.

فالخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان يعلم أنه لا يصلح لأهل الكوفة الثائرين الأبطال سوى الحجاج بن يوسف الثقفي، ولهذا عينه حاكماً ووالياً على الكوفة وهو أقسى الجلاّدين وأشدهم غلظة وأكثرهم ارتباطاً وتبعية لبني أمية.

دخل الحجاج الكوفة في منتصف الليل مع مجموعة من المسلحين ولم يعلم بدخولهم أحد من أهلها، والوالي السابق على الكوفة كان قد أُخرج أو عومل معاملة الطريد من قبل أهل الكوفة. دخل الحجاج مسجد الكوفة في منتصف الليلة نفسها، وكان المسجد يدوي بأصوات أهل العبادة والمتهجدين. أصدر الحجاج لغلمانه وجنوده أوامره وعين لهم أماكن استقرارهم، ومن غير أن يشعر به أحد توجه إلى المسجد ودخل بين صفوف الناس ثم استل نفسه من بينهم ليستقر على المنبر، ولأن مسجد الكوفة واسع جداً لم يشعر الناس بما يجري أول وهلة ولكنهم بدأوا يدركون تدريجياً ما الذي يحدث، شاهدوا رجلاً غريب المظهر والهيئة جالساً على المنبر من غير أن ينطق بكلمة، يلبس عمامة حمراء قد أنزل حنكها، وكان متلثماً لا يرى من وجهه إلا بريق عينه، وكانت له هيئة مدهشة. تصوروا رجلاً يحمل السيف ويلبس عباءة وعمامة حمراء يجلس على المنبر بهيئته هذه ومن غير أن يتكلم، في تلك اللحظة رفع رجل من المصلين رأسه لتقع عينه على هذا المنظر الغريب، سأل الذي إلى جنبه من هذا؟ والآخر يسأل الذي إلى صفه وبدأت تنتشر في أنحاء المسجد التساؤلات عن هوية هذا الرجل، وانتشر الغوغاء والضجيج أثير انتباه الناس بهذا الشكل فتركز اهتمامهم حول المنبر، تصوروا جيداً ماذا يقول القرآن {نولّه ما تولى} من لا يخضع لحاكمية الله وولايته سوف يطوّق عنقه بما لا يستطيع الفكاك منه.

فأنت أيها المصلي الجالس في المسجد، أنت مسلم وترى على منبر مسجدك رجلاً لا تعرفه، لماذا لا تتحرك نحوه وتسأله من أنت؟ لماذا لا تسعى إلى معرفة هذا الرجل ثم تعرفه للناس؟ وأنت أيها المصلي الثاني والثالث يوجه إليك نفس السؤال، فلو سأل كل هؤلاء نفس ذلك الرجل عن هويته ونادوا من أنت؟ فسوف يتغير الوضع، لكن هؤلاء ركنوا إلى الخور وفقدوا إرادتهم، وضعفت نفوسهم وانتظروا مقالة الحجاج فيهم.

عندما رأى الحجاج أن كل العيون توجهت نحوه من غير أن يعرفوه، قال لهم: سأعرفكم من أنا، فنزع العمامة ولثامه ثم قال:

أنا ابن جلاّ وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وكان هناك واحد أو اثنان من أهل الكوفة يعرفون الحجاج لأنه كان قد جاء إليها مرة في فترة سابقة، فقال من يعرفه هذا هو الحجاج، نعم إنه هو.. فضج المسجد بخبر دخول الحجاج وداخل الناس رعب شديد، ثم قال الحجاج: أنا الحجاج وصح فهمكم، وكان الخوف والرعب يخيم على الناس، ولم يقل أحدهم لنفسه الحجاج رجل وأنا رجل هو فوق المنبر وأنا تحته وكل ما عنده عندي، ولكن ضعف العزيمة كان سائداً بين الناس.

قال الحجاج: يا أهل الكوفة إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها. عندما سمع الناس هذا التهديد الفارغ في حقيقته زاد رعبهم وهلعهم. وهل دخل الحجاج إلى الكوفة وهو يحمل قنبلة ذرية؟

ولو كانت معه لما فجرها، لأنه لو فعل ذلك لما بقي أحد حتى يكون ولياً وحاكماً عليه، لابد من بقاء مجموعة لأنه لو قتل الجميع فسوف لن يكون حاكماً على أحد. وليس ثمة حاكمية على الباب والحائط والتراب والحجر.

لم يفكر الناس بهذه الأمور بعد أن قال الحجاج: إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، ثم أضاف: وأنا أحدد الآن أي رأس سوف يقطف، ونادى غلامه، فنهض وقال: له اقرأ كتاب أمير المؤمنين (عبد الملك بن مروان) لأهل الكوفة.

فتح الغلام كتاب عبد الملك فقرأ مطلعه وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى أهل الكوفة: يا أهل الكوفة، سلام عليكم.

عندما قرأ الغلام هذا الكلام قاطعه الحجاج وقال له: اسكت، ثم التفت إلى الناس وقال: انكم تسيئون الأدب فأنتم لا تردون سلام أمير المؤمنين، ثم قال أكمل يا غلام.

قرأ الغلام ثانية يا أهل الكوفة سلام عليكم. عندها ضجَّ الناس من أنحاء المسجد وبصوت عالٍ وعلى أمير المؤمنين السلام. ابتسم الحجاج راضياً وقال لنفسه انتهى الأمر، وكان ما قاله صحيحاً تماماً، فإن رد السلام على أمير المؤمنين والفاسقين يعني قبول ولاية الحجاج وحكومته. وبهذا الشكل انتهت مقاومة أهل الكوفة.

{ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى}.

وحين أجبتم يا أهل الكوفة الحجاج وأردتموه فهو لكم وهو وليكم، والله سبحانه لا يخرج الحجاج عن ولايتكم بطريق إعجازي ليضع مكانه الإمام زين العابدين(ع). كلا، فالحجاج لكم وما دمتم تحبونه فكل حياتكم وفكركم وروحكم طوع أمره، هذه هي سنة الحياة والكون والتاريخ.

بعد قراءة كتاب عبد الملك نزل الحجاج من المنبر ليتوجه إلى دار الإمارة، وكان جمع من أهل الكوفة قد ساندوا أحد الخارجين على الدولة ولعله محمد بن الأشعث، فأراد الحجاج أن يلعب لعبة جديدة، فقال لأهل الكوفة: يلزمكم الاحتياط فتأتونا جميعاً لتعترفوا بأنكم قد كفرتم ثم تؤمنوا من جديد وتتوبوا.. فاستجاب له الهمج الرعاع وبقي المخلصون من أهل الكوفة فإنهم لم يكونوا على استعداد للاستجابة، بقي بعضهم في بيته وشحذ بعضهم الآخر سيفه وبعضهم عمل غير هذا. ذهب الناس جماعات إلى دار الإمارة، ليشهدوا على أنفسهم بالخروج على دين الله والارتداد عن الإسلام، وبعد أن شهدوا بذلك تابوا قائلين: تبنا وندعو الله أن يقبل الأمير توبتنا لأننا نريد أن نكون على الإسلام.

وكان هناك شيخ طاعن في السن قد تقدم نحو الحجاج، فبادره الحجاج لما شاهد عليه من سيماء الوقار والهيبة: كأنك شاك في كفرك. ومعنى هذا الكلام أن يرد على شكّه بقطع رأسه بالسيف، فقال له الشيخ: كلا، فأنا أكثر الجميع كفراً. هذا مقطع من التاريخ، التاريخ درس الحياة والرجل العاقل من يدرس التاريخ والحياة ليكون له عمران يقضي أحدهما مجرباً باحثاً، ويقضي آخر في تطبيق ما حصل عليه من خبرات وتجارب.

وتجربة التاريخ وحوادثه هي عمرنا الأول. دققوا في التاريخ واستأنسوا به واحرصوا على أن تلتقطوا ما في أعماقه، ولا تكتفوا ما الذي يريد أن يقوله لنا التاريخ وما الذي تخبرنا به وتقوله لنا قصة الحجاج، وليس ضاراً أن أضيف هنا أن الحجاج هذا قد قُتل بأبشع صورة بيد هؤلاء الذين ارتكب كل تلك الجرائم والفجائع من أجلهم، وليس ضاراً أيضاً أن تعرفوا من أعان ظالماً سلّطه الله عليه. وهذه سنة أخرى..

لاحظوا عظمة الدروس التي يقدمها لنا التاريخ، ولاحظوا أهمية مقولات التاريخ وسننه. سيروا مع التاريخ مع كمال التدقيق. سوف ترون أن الآية القرآنية يتضح معناها بكل يسر، وقد عرضت عليكم شيئاً من مقاطع التاريخ وعليكم مهمة الاتصال والارتباط بالتاريخ.. وارجع الآن إلى الآيات القرآنية {وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم}.

فأنت عندما تقرأ القرآن وتطلع على المفاهيم الإسلامية سوف تدخل في حمى الله سبحانه وتلوذ به من الشيطان الذي لا يريد أن تعرف القرآن وتفهمه، فاسع إلى أن لا تُسلب منك معرفة القرآن المستحكمة في قلبك لتفتح لك هذه المعرفة طريق الوعي والعمل، ومن أجل هذا استعذ من الشيطان الرجيم.

{إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون}. فالشيطان الضال المضل لا يتسلط على المؤمن، فتوكل على الله واعتمد عليه، والشيطان لا يتسلط على من يخضع لولاية الله ويدخل في دائرة حاكمية {إنما سلطانه على الذين يتولونه} من يخضع لولاية الشيطان فهو وليه {إنما سلطانه على الذين يتولونه}، والآية تفيد حصر ولاية الشيطان في دائرة من يرتضي ولاية الشيطان ويخضع له، {والذين هم به مشركون}[3] وتقدم في آية من سورة النساء تلوناها {ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى}.

فيجعل الله من تولى الشيطان قائداً له وحاكماً عليه ووليّاً على أموره {ونصله جهنم وساءت مصيرا}[4].

{إن الله لا يغفر أن يُشرك به} عليكم الرجوع إلى أبحاث التوحيد لتعرفوا معنى مصطلحي التوحيد والشرك وتحددوهما، فما الشرك وما التوحيد، وما هو الذنب الذي لا يتجاوز عنه الله ولا يغفره؟ إن الله لا يغفر أن يشرك به في الولاية، والمشرك الذي لا يغفر له هو من منطقة النفوذ الإلهي الرباني لغير الله واستقرت في روحه جراحات المعاصي والتخلف عن أمر الله ورسالته، وهذه الجراحات لن تلتئم، لا يغفر له والغفران يعني التئام الجراحات التي تسببها المعاصي والانحرافات، فإذا أشركت غير الله في الولاية فلن تذهب عنك آثار المعاصي وجراحاتها.

{ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ويغفر الله غير الشرك من المعاصي. وطبيعي أن هذه المغفرة تأتي بعد التوبة والتدارك، فالذي يتوجه إلى الله يتوجه الله إليه ويغفر له، ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً وابتعد عن الهداية.

قد يضل الإنسان ولا يهتدي إلى الطريق في الصحراء ويبتعد مقدار كيلومتر واحد ولكن هذا الإنسان لو ضل الطريق عشرات الكيلومترات فلن يسهل عليه الرجوع ويحتاج إلى جهد كبير وتعب شاق وتيقظ بالغ ودليل قوي ليرجع إلى الطريق. وأولئك الذين أشركوا قطعوا مسافة شاسعة مبتعدين عن الهداية الربانية وعن طريق الله الوسطى المستقيمة.

{فقد ضلّ ضلالاً بعيداً إن يدعون من دونه إلا أناثا وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً} المريد هو العاصي والغوي، وللمريد معنى آخر وهو غير المتخلق بالأخلاق الفاضلة. {لعنه الله} حيث أن الشيطان عاهد الله من أول الأمر على الطغيان والإضلال، ومن حيث الأساس والطبيعة والصفات لا تلتقي جبهة الشيطان مع الجبهة الإلهية.

وهنا يبين القرآن طبيعة الشيطان وصفات الشيطان في العالم {وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً}[5]. فتعهد الشيطان هنا بأن يضل طائفة من العباد عن الطريق المستقيم، فيستولي على عقولهم ويعمي أبصارهم وبصيرتهم ويخرجهم من دائرة ولاء الله ليدخلهم تحت ظل ولائه وقيادته، {ولأضلّنهم ولأمنّينهم} تأملوا هذه الكلمة فهي تشمل الأماني الطويلة والبعيدة وكل ما يبعد الإنسان عن المجاهدة والكدح في سبيل الله..

الأماني والآمال أن يعيش الإنسان براحة وطمأنينة وسرور ورفاه، فأمانيه أن يزوج الولد الكبير والبنات، وتوسعة الدار الصغيرة ومحل تجارته، وأن يكون رئيساً ومديراً لذلك الجهاز أو تلك الجمعية أو الهيئة، أو الحصول على هذا المقدار من المال ... فالآمال البعيدة والأماني الطويلة تطوق عنق الإنسان وتدور حوله كما يدور حجر الطاحونة، وإذا قلعت أضراس الأماني والآمال وأبعدتها عنك فسوف تعيش حراً، وتفكر بحرية وترى رؤية حرة من غير أن يفيدك أي قيد، فلهذا يقول الشيطان {ولأمنّينهم}، سوف أقيدهم بقيود الآمال البعيدة والطويلة {ولآمرنهم فليبتّكن آذان الأنعام}، يمكن أن يراد من الآية الإشارة إلى العادة الجاهلية بشق آذان الأنعام ويمكن أن يكون للآية معنى دقيق، ولم أدقق لمراجعة ما قيل حول الآية، والظاهر أن الآية تشير إلى ما يفعله أهل الجاهلية من شق أو قطع أذن الحيوان تحسباً للبركة والرزق والسلامة، وهذه سنة جاهلية وهي أنموذج ومصداق للأفكار والأطروحات الجاهلية وتلاحظون سخافة هذا العمل وتفاهته، وكل سنن الشيطان على

هذه الشاكلة، {ولآمرنهم فليغيّرن خلق الله} وفطرته حيث سأخرجهم من دائرة الولاء لله لأدخلهم في دائرة الولاء لي، وسآمرهم بالخروج على فطرة الله والابتعاد عن نهجه وخطه الذي رسمه لعباده. وسأضع لهم قانوناً يخالف الفطرة وأرسم لهم طريقاً يخالف طبيعتهم ويوصلهم إلى نهاية غير النهاية المرسومة لهم.

{ولآمرنهم فليغيّرن خلق الله} هذا هو عهد الشيطان مع الله فهو عهد ولجاجة وعناد مع الله، وهذا هو خط كل الشياطين وأطروحتهم وبرنامجهم.. وكونوا على اطمئنان أن الناس لو أرادوا أن يعيشوا على ضوء الفطرة والخلقة الأصلية، فلن يهيمن عليهم الشيطان ولن يظهر في طريقهم، وإنما يبعد عن الفطرة من يتولاه ويخضع له، لأن هذا هو دور الشيطان وعمله وخطته وميثاقه، ولهذا يخاطبني ويخاطبكم الله سبحانه في نفس السياق القرآني المتقدم {ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً}[6].

خلاصة المقالة الخامسة

كل ولاية غير الولاية الإلهية هي ولاية الشيطان والطاغوت، والخضوع لولاية الشيطان توجب تسلط الشيطان على كل القوى الفعالة والخلافة التي أودعها الله في الإنسان وعندئذ يسيرها في طريق هواه، وقيادة الطاغوت وحاكميته وولايته لا تؤدي إلا إلى ضياع وهدر الطاقات الحية، حيث أن الطاغوت لا يرى إلا مصالحه الشخصية، وإنما يحرم البشر من نور المعرفة وأشعة الهدى الإلهي والحياة في ظل الدين الرباني، ويحبسون في الجهل والشهوة والغرور والطغيان لأنهم يخضعون لولاية الطاغوت.

وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون}[7]. {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً * إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً * إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلّنهم ولأمنّينهم ولآمرنهم فليبتّكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيّرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً * مبيناً يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً}[8].

{الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}[9].

أسئلة المقالة الخامسة

1 ـ ما هو محور البحث في هذه المقالة، وما هو البعد الذي تدور حوله هذه المقالة؟

2 ـ كيف عرض القرآن ولاية غير الله، وبأي اسم سماها؟

3 ـ ما هو الطاغوت، وماذا يعني، وما هو مقامه في العلاقة مع أشراف القوم والملأ والمترفين والأحبار والرهبان؟

4 ـ ما هي العلاقة والنسبة بين الشيطان والطاغوت، وما هي مصاديق الاثنين؟

5 ـ وضح المعنى اللغوي لقوله تعالى {نولّه ما تولى}، ثم أوضح المعنى الذي تريد الآية بيانه؟

6 ـ على أي طائفة من الناس يتسلط الشيطان ويتولى؟

7 ـ قارن بين آية 13 من سورة النساء وآية 98 من سورة النحل، واستخرج الإجابة الدقيقة عن السؤال السادس؟

8 ـ بيّن القرآن الحوار بين الشيطان وبين الله سبحانه وتعالى وذكر القرآن تعهدات الشيطان، اذكر مثالاً تاريخياً لكل مورد؟

[1] - سورة الأنعام، الآيتان: 13-14.

[2] سورة النساء، الآية: 76.

[3] - سورة النساء، الآية: 115.

[4] - سورة النحل، الآية: 100.

[5] سورة النساء، الآية: 105.

[6] سورة النساء، الآيات: 116- 118.

[7] - سورة النحل، الآيتان: 99-100.

[8] - سورة النساء، الآيات: 115-120.

[9] سورة البقرة، الآية: 257.

المقالة السادسة

العلاقة بين الولاية والهجرة

الأمر الرابع الذي يرتبط بالولاية هو الهجرة، فلو درسنا الولاية بشكل واسع كما فعلنا فيما تقدم فإن الهجرة ترتبط عندئذ بالولاية إرتباطاً قوياً، لأن الولاية عبارة عن الارتباط والعلاقة المحكمة بين أفراد الصف الواحد وقطع كل أنحاء التبعية والارتباط بين الصف المؤمن وبين الصف غير المؤمن، ويترتب على هذا البعد من الولاية إيجاد الارتباط القوي المحكم بين كل أفراد الصف المؤمن وبين النقطة المركزية والقدرة الواحدة التي بيدها إدارة المجتمع الإسلامي أي الإمام والولي والحاكم. وتعرضنا فيما سبق إلى بحث خصائص وصفات الأشخاص الذين يصلحون لإمامة وقيادة المجتمع المسلم، وأخذنا الإجابة من القرآن الكريم {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}[1].

وأشرنا إلى قصة أمير المؤمنين صلوات الله عليه مع السائل، فإذا درسنا الولاية بهذه الشمولية والسعة ولم نحصرها في المسائل الجزئية والفرعية تكون مسألة الهجرة داخلة في صميم بحث الولاية، لأنه مع الرضوخ لولاية الله سبحانه وقبولها لابد من توظيف كل الطاقات والنشاطات الجسدية والفكرية والنفسية في الطريق الذي يرسمه ولي الله، وعلى الإنسان أن يكون عبداً لله بكل جوارحه وجوانحه وعناصر وجوده لا عبداً للطاغوت، ولابد من أن نخرج من تبعات الخضوع لولاية الطاغوت ونحرر أنفسنا منها ونحطم قيود ولايته، وعلينا أن نحيا تحت ظل ولاية الله المباركة، فلو خضعنا في مورد ما لولاية الطاغوت بعد خروجنا على ولاية الله فعلينا الرجوع والإنابة إلى الله سبحانه، فإن هذا هو ميثاقنا وعهدنا مع الله سبحانه أن نخرج من ولاية الطاغوت إلى ولايته سبحانه.

والهجرة: هي الخروج على ولاية الولي والإمام الظالم ثم الانضواء تحت لواء ولاية الإمام العادل. حينئذ تطرح مسألة الهجرة متفرعة على مفهوم الولاية. وقد تقدم الحديث عن الأمور الثلاث المفرعة على الولاية. وهذا هو الأمر الرابع.

لماذا كان من ضروري على الإنسان أن يفر من الولاء للطاغوت؟

والإجابة على هذا التساؤل تأتي بعد الإجابة عن سؤال آخر أريد منكم أن تحللوا مفرداته في أذهانكم حتى تحصلوا على الإجابة المطابقة للأصول والمفاهيم الإسلامية والعقائدية.

والسؤال هو: هل يمكن للإنسان أن يجمع بين الخضوع لولاية الطاغوت وبين كونه مسلماً؟ وهل يمكن لمسلم أن يحيا تحت ظل ولاية الشيطان وهو في نفس الوقت عبدٌ للرحمن؟ وهل ثمة مورد تجتمع فيه حالتان؛ حالة تأثير الدافع غير الإلهي على كل آفاق الإنسان وشؤون حياته سواء في ذلك شؤون الجسد والفكر والنفس أي حالة الخضوع للدوافع الشيطانية والطاغوتية، وحالة العبودية لله والتدين بالإسلام عقيدة ومبدءً؛ هل يمكن الجمع بين هاتين الحالتين؟

أنتم الآن تهيئون الإجابة حول هذا السؤال، ولابد من تحليل مفردات هذا السؤال وتفسيرها وتوضيحها، نحن نسأل عن إمكانية الجمع بين الخضوع لولاية الشيطان وبين اختيار الإنسان للإسلام ديناً ومبدءً، وهذا السؤال يتركب من مقطعين وفقرتين، فعلينا أن نحلل هذين المقطعين ونتوصل إلى معناهما.

المقطع الأول: خضوع الإنسان لولاية الطاغوت والشيطان.

ماذا نعني بالولاء للشيطان والطاغوت؟ إذا لاحظنا المعنى الذي استخلصناه من القرآن الكريم لمصطلح الولاية وضممناه إلى فقرة ولاية الشيطان ودرسنا هذه الفقرة على أساس ذلك المصطلح يتضح معنى ولاية الشيطان؛ فهو: سيطرة الشيطان على كل الطاقات والاستعدادات والإبداعات الإنسانية وتوظيفها في الخط الذي يرسمه الشيطان. ونكرر هنا أن للشيطان معنىً كلي، فسوف يفكر الإنسان في المجالات التي يحددها الشيطان ويرسمها. ويكون حال هذا الإنسان الخاضع لولاية الشيطان كحال من كان في وسط نهر شديد الجريان أو كمن جرفه سيل عرم، فهو لا يحب أن تصيبه الصخور الضخمة الهائلة لتحطم رأسه، ولا يحب أن يجرفه الماء ليلقيه في مستنقع آسن كما لا يحب أن يخنقه الماء وهو في غمرات أمواجه. مع أنه لا يحب كل ذلك فإن الجريان المتدفق الهادر يجرفه من غير اختياره والذي يستطيع أن يفعله هو أن يحرك رجليه ويلصق جسده بهذا الطرف أو ذاك ويتشبث بكل شيء أمامه، ولكن هذا لا يعني شيئاً لمواجهة المياه المتدفقة.

يقول القرآن الكريم {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار}[2] فهم قادة يقدمون قومهم ومن تولاهم إلى النار والشقاء.

{ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار}[3].

ما هي النعمة التي كفر بها هؤلاء؟ إنها نعمة القدرة وهي مظهر قدرة الله وسلطانه وحاكميته؛ فالقدرات الدنيوية هي نعمة ربط إدارة أمور الإنسان وجزئياته بمحور واحد، ونعمة التوظيف السليم والإثارة النافعة للقدرات والاستعدادات والمعارف والطاقات الكثيرة المودعة في الوجود الإنساني. كل هذه نعم وهي رأسمال يدر الخير على البشر، وكل فرد يقع تحت اختيار وهيمنة أولئك الأئمة الذين أشارت إليهم الآية يستطيع أن يكون إنساناً كبيراً ويصل إلى أعلى مدارج الكمال، ولكن هؤلاء كفروا بهذه النعم ولم يصرفوها في طريقها الطبيعي، والقرآن الكريم يقول: {وأحلوا قومهم دار البوار}، فهم ومن تولاهم في دار العدم والفناء والهلاك {جهنم يصلونها وبئس القرار}.

وقد قرأ الإمام موسى بن جعفر (ع) هذه الآية على مسامع هارون الرشيد وأفهمه بأنه من هؤلاء الأئمة الذين يقودون قومهم ومن تولاهم إلى النار وبئس القرار، عندما سأله هارون هل نحن من الكفار يريد بذلك أن يقول نحن نعتقد بالله ونبيه ودينه، فقرأ عليه الإمام هذه الآية وأفهمه أن الكافر ليس هو من يقول بكل صراحة وعن يقين وقطع أنه لا وجود لله، والقرآن كذب وباطل، والنبي خرافة، فهذا كفر وهو أهون أقسام الكفر، لأن صاحبه يصرح بعقيدته بصورة كاملة، وعندئذ يعرفه الناس، ويحددون موقفهم منه. ولكن أسوأ الكفار من يكفر بتلك النعم العظيمة المودعة لديه والتي وضعت تحت اختياره وتصرفه، فهو يصرفها ويوظفها في منهج غير صحيح، ولا يقود نفسه فقط نحو النار بل يقدم قومه إليها أيضاً، يقود قومه ومن تولاه نحو جهنم. هذه هي ولاية الطاغوت والذي يعيش في ظل ولايته كأنه فاقد لإرادته وحريته، ولا أقول ليس له إرادة أو اختيار بصورة مطلقة، وبعد أن طرحنا وحللنا معنى الآية يتضح لنا هذا الأمر وهو في وسط السيل العرم يتحرك معه وفي غمراته ولن يستطيع أن يضرب بيديه ورجليه، وهو يريد أن ينحرف عن طريق جهنم لكنه لا يستطيع وهو يرى أن كل أفراد جماعته يتحركون نحو جنهم وهم يدفعونه معهم.. هل ذهبتم إلى الأماكن المزدحمة والمكتظة بالناس كبعض الأسواق والطرق؟ فأنت ترغب أن تسير في هذه الجهة لكن الحشود تدفعك من غير أن تستطيع المقاومة إلى الجهة المقابلة، والذي يخضع لولاية الطاغوت يُحب أن يكون صالحاً حسن الفعال والأخلاق ويحب أن يحيا حياة المسلمين الصالحة، حياة الإنسان الفاضل ويحب أن يحيا مسلماً ويموت مسلماً، لكنه لا يستطيع.

فإن السيل المتدفق لحركة المجتمع يجرفه بشكل لا يترك له أي قدرة على تحريك يديه ورجليه، وإذا استطاع أن يضرب بهما الأرض فلن يحصل على أكثر من هدر طاقة من طاقاته، ليس فقط لا يستطيع ضرب الأرض بيديه ورجليه وإنما الأسوأ من ذلك أنه أحياناً لا يستطيع أن يفهم ما يجري. لا أعلم هل قُدّر لكم أن تشاهدوا الأسماك التي تقع في شباك الصيادين في البحار؟ إذ يحدث أحياناً أن تقع آلاف الأسماك في شبكة واحدة ويبدأ الصيادون بسحبها من وسط البحر إلى الساحل، ولكن من غير أن تحس أي سمكة بما يجري والى أي اتجاه تتحرك بل انها تحس أنها تتحرك باختيارها نحو مقصد معين، ولكن الواقع أنها تتحرك من غير اختيارها فإن مقصدها هو المقصد الذي حدده الصياد صاحب الشبكة، وكذلك تفعل شبكة النظام الجاهلي غير المرئية، فهي تسحب الإنسان إلى جهة تحددها هي.

ويحب الإنسان أن يتحرك نحو دار السعادة والفلاح وهو غافل عن أنه يتحرك نحو جهنم {جهنم يصلونها وبئس القرار}. هذه هي ولاية الطاغوت وولاية الشيطان والتي تشكل الفقرة الأولى من سؤالنا المتقدم عن إمكانية أن يحيا المسلم تحت ظل ولاية الطاغوت ويخضع له محافظاً على إسلامه.

وهكذا عرفنا بشكل إجمالي ماذا تعني الحياة تحت ظل الولاء للطاغوت، وإذا أردتم تفسير ذلك تستطيعون الرجوع إلى التاريخ لتروا أن العالم الإسلامي في عصر بني أمية وبني العباس قد شهد حركة قوية، فإن الموج المتلاطم من المعلومات والمعرفة في ذلك العصر كان قد شمل المجتمع الإسلامي، وكم قد ظهر من الأطباء البارعين الكبار ومن المترجمين الأذكياء الذين قاموا بترجمة الآثار المهمة للثقافات القديمة إلى اللغة العربية في وقت لم يشهد أي تطور لغوي أو معرفة باللغات المختلفة.

لقد كانت عظمة المسلمين واضحة في مجالات علم الطب والنجوم والفنون الجميلة وغير ذلك، وقد اعترف غوستاف لوبون الفرنسي وغيره من الباحثين والمستشرقين عند ملاحظتهم هذه الظواهر البارزة في حياة المسلمين في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري، اعترفوا أن هذه العصور هي العصور الذهبية للحضارة الإسلامية.

وقد كتب غوستاف لوبون كتاباً عن ذلك بعنوان (تاريخ التمدن الإسلامي في القرن الرابع الهجري).

وبصورة عامة نقول أن المستشرق الأوربي عندما يطالع مسيرة تلك القرون الثلاثة يصاب بالذهول والدهشة ذلك لأن الطاقات والنشاطات الفعالة قد برزت في تلك الفترة، ولكني أوجه إليكم هذا السؤال: هل كانت هذه النشاطات الفعالة في صالح المجتمع الإسلامي وفي نفع الإنسانية؟ وقد مرّ على تلك الفترة عشرة قرون، وليس لنا أي نظرة متعصبة تجاه تلك القرون، ونستطيع أن نقول للعالم غير الإسلامي أن العالم الإسلامي هو الذي أنشأ الجامعات وأوجد الدراسات الفلسفية، وهو الذي برع في مجالات الطب والدراسات الطبيعية، ولكن حين ننظر إلى المسألة فيما بيننا نظرة موضوعية محايدة، هل نستطيع أن نقول ان تلك الطاقات قد وظفت في موقعها المناسب ومن أجل الإنسانية وفي صالح المجتمع الإسلامي؟

ما الذي يملكه المجتمع الإسلامي بعد عشرة قرون من ذلك التراث؟

ولماذا لا يملك منه شيئاً؟ لماذا لم تبق لنا كل تلك الثروات العلمية والثقافية؟ ولماذا لا يضيء مجتمعنا الإسلامي من بين المجتمعات وهو الذي كان يشع ضياءً قبل عشرة قرون؟ هل أن ذلك يعود إلى حاكمية الطاغوت على تلك الأنشطة والفعاليات الكبيرة؟

نعم، إن قادة السوء هم الذين كانوا يلعبون بمقدرات المجتمع الإسلامي من أجل أن ترفع اسمها عالياً؛ مثلاً في زمان أحد الخلفاء العباسيين برزت ظاهرة الترجمة، وعوضاً عن هذه الفعاليات في مجالات الطبيعة والرياضيات والنجوم والأدب والفقه لو كانوا قد مهدوا لمجيء الحكومة الإسلامية بقيادة أئمة أهل البيت؛ فلو كان القائد أو الحاكم هو الإمام الصادق (ع) وكانت القوى والطاقات الإنسانية تحت تصرفه فسوف تكون قيادته في صالح الإنسانية وسبباً إلى نضجها، حتى لو فرضنا المحال وقلنا أن الإمام الصادق لا يوظف تلك الطاقات في المجالات العلمية والأدبية والتي هي موضع فخر واعتزاز للعالم المعاصر، وحتى لو تأخرت البشرية في تلك المجالات مائة عام. نعم ستكون النتيجة في صالح البشرية وسوف تتفتح أزاهير الإسلام وتصرف الطاقات والاستعدادات في سبيلها الصحيح، ولا يقتصر الأمر على ترجمة الكتب والتقدم العلمي والبراعة في الطب من غير أن ينمو الجانب الخلقي والاجتماعي، مما يؤدي ـ وقد أدى فعلاً ـ إلى ظهور الطبقية بشكل عنيف.

ويعد الاختلاف الطبقي المتفشي في ذلك العصر من أساطير التاريخ، تماماً كالتمدن القذر والهابط الذي يسود عصرنا اليوم؛ فإن القوى العالمية العظمى تسود في العالم اليوم لأنها وصلت إلى مستوى علمي رفيع بسبب الاكتشافات والاختراعات المدهشة، فهم بين فترة وأخرى يعلنون عن اكتشافات واختراعات جديدة في مجالات الطب والتكنولوجيا وغيرها ولكنهم في الجوانب الإنسانية والأخلاقية لا زالوا في المراحل التاريخية السائدة قبل آلاف السنين. ولا زال إلى جنب الثراء العظيم، المجاعات وحالات الفقر الاسطورية، وهؤلاء يتباهون بالتقدم العلمي.

هذه صورة مطابقة لما كان عليه الوضع في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري، وهذا ما حدث في التمدن الإسلامي العظيم في تلك القرون، فهناك تقدم علمي هائل لكن الحياة مترفة لاهية عابثة وفارغة عن الفضيلة. وهناك أسماء نذكرها بكل فخر واعتزاز ضمن قائمة المناهضين بشدة لتلك المدينة الخاوية، كالمعلى بن خنيس فقد صلب في السوق، وكذلك يحيى بن أم طويل الذي قطعت يده ورجله ولسانه، ومحمد بن أبي عمير الذي ضرب أربعمائة جلدة، وكذلك يحيى بن زيد الذي قتل في سن الثامنة عشر في جبال خراسان، وزيد بن علي الذي ظلت جثته معلقة على الخشبة التي صُلب عليها مدة أربع سنوات.

هؤلاء رجال يفتخر بهم العالم، ولم يكن لهؤلاء أي علاقة إيجابية مع التمدن الهائل الوضاء الذي يشير إليه غوستاف لوبون ويكتب عنه، بل كانت لهم علاقة سلبية مع ذلك التمدن وكانت لهم معه مواجهة مسلحة. لهذا ندرك أن ولاية الطاغوت والشيطان على المجتمع توظف الطاقات الاجتماعية الخاضعة لها بالشكل الذي نشاهده في المدنية الحديثة وشاهدناه قبل عشر قرون في العالم الإسلامي، وأما الشكل الذي ينسجم مع القيم الأصيلة والمعايير المنطقية فليس له أي قيمة في السوق السوداء.

هذه هي ولاية الطاغوت، فهل يمكن أن يحافظ المسلم على إسلامه مع اندماجه بها وعيشه في كنفها وتقلبه في أوضاعها وأخلاقها؟! ونحن نسأل عن معنى أن يعيش الإنسان مسلماً إن هذا يعني وضع كل الطاقات والإمكانات والفنون والقدرات والقابليات تحت إرادة الله سبحانه، فالمال والنفس والمعرفة والفكر وكل ما نملك تحت إرادة الله، ولدينا نموذجان لما عرضناه، نموذج يعود إلى المجتمع والحياة الاجتماعية المتمدنة، ونموذج يرجع إلى المجموعات الخارجة على الأنظمة التي يحكمها الطاغوت والمهاجرة إلى الله.

النموذج الأول: مجتمع المدينة في زمن الرسول (ص) الذي كان خاضعاً لله سبحانه؛ فكل حركة يتحركها لله، وكل خطوة يخطوها في سبيل الله، وكان اليهود والنصارى يعيشون في كنف الولاية الإسلامية، ومع أنهم لم يسلموا لكنهم يحيون الحياة الإسلامية لأن هؤلاء يعيشون في ذمة الإسلام؛ ومعنى ذلك أنهم يتحركون من ناحية عملية في الطريق الإسلامي؛ فاليهودي الذي لم يسلم عندما يعيش ضمن الولاء للإسلام قد يكون أكثر نفعاً للإسلام من المسلم الذي يخضع للنظام الجاهلي. كانت الأموال والثورة تنفق في سبيل الله في زمن الرسول وكذا السيف والسلاح والفكر والمعرفة، وكل ما يصدر من فعل من المسلمين فهو لله وفي سبيله، والعواطف والأحاسيس والبغض كانت لله وفي الله. وفي زمان أمير المؤمنين (ع) كان الوضع بهذا الشكل تقريباً حيث أن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) لا يختلف عن النبي (ص) بلحاظ كونه حاكماً ووليا لكنه كان قد ورث مجتمعاً ضعيفاً سئ الأوضاع كثير النواقص، ولو كان النبي (ص) نفسه مكان أمير المؤمنين فإنه سيواجه نفس المشكلات الاجتماعية التي واجهها أمير المؤمنين.

والنموذج الثاني: هو نموذج المجموعات الشيعية المرتبطة بالأئمة على مر التاريخ، ونحن نأسف لانتهاء شهر رمضان ولم نبحث بعد تفاصيل مسألة الإمامة، فإن المفروض أن أبحث مسألة الإمامة بعد مسألة الولاية لأبين لكم هناك أن الشيعة في زمان الأئمة كانوا كياناً واحداً منسجماً ومتفاعلاً، وأبرز لكم نوع ومناشئ العلاقات بين الإمام وبين الشيعة والعلاقة بين الشيعة وبين المجتمع آنذاك.

وأنا مضطر لعرض المسألة بشكل إجمالي. كان ظاهر الشيعة أنهم يعيشون في كنف النظام الذي يحكمه الطاغوت، ولكنهم في الواقع كانوا يتحركون ضد هذا النظام تماماً. وكمثال لذلك نذكر تلك المجموعة المحدودة العدد التي خرجت مع الحسين بن علي (صلوات الله وسلامه عليه)؛ فهؤلاء شقوا السيل العارم وساروا خلافاً للجهة التي يدفعهم السيل للسير فيها، وهذا أحد النماذج التاريخية للهجرة ولحركة المجموعات المجاهدة.

نريد أن نقول أن الفرد العادي وبصورة كلية الفرد أياً كان، لا يستطيع أن يعيش في ظل مجتمع يحكمه الطاغوت وهو مع ذلك يحافظ على إسلامه بأن يكون وجوده وإمكاناته وطاقاته وكل قواه تحت إرادة الله وحاكميته ورسالته، فالمسلم الذي

يعيش في محيط وبيئة يتسلط عليها الطاغوت سوف يصرف شيئاً من طاقاته في طريق الطاغوت ولا يمكنه أن يكون عبداً خالصاً مخلصاً لله بصورة كاملة. وفي كتاب الكافي ـ وهو من أهم المصادر الموثوقة والقديمة للشيعة ـ ورد حديث بعبارات متعددة أقرأ عليكم إحدى هذه العبارات ويمكنكم الرجوع إلى الكتاب[4]. قال الإمام الصادق (ع):

"إن الله لا يستحي أن يعذب أمة دانت بإمام ليس من الله وإن كانت في أعمالها برة تقية، وإنّ الله ليستحي أن يعذب أمة دانت بإمام من الله وإن كانت في أعمالها ظالمة مسيئة".

وهذا الحديث يثير العجب والدهشة؛ فهو يؤكد أن المجتمع الذي يعيش حالة الولاء لله مجتمع صالح ومؤهل للنجاة وإن كان يرتكب بعض المعاصي في جزئيات سلوكه أحياناً، وأما أولئك الذين يعيشون تحت ولاية الشيطان والطاغوت فهم من أهل العذاب وإن كانت جزئيات سلوكهم وأعمالهم صالحة وحسنة.

وأنا أشبّه مفاد هذا الحديث بمن يصعد في سيارة قاصداً نيشابور؛ فإذا تحركت نحو هذه المدينة فهو سيصل حتماً إلى هدفه، بخلاف ما إذا تحركت نحو طبس أو قوجان فمن المسلّم به أنه لن يصل إلى هدفه. ولنفترض أنها تحركت نحو نيشابور وهي الهدف المقصود فسوف يصل المسافرون إلى هدفهم على كلتا حالتين: حالة ظهور الآداب والأخلاق الحسنة بين المسافرين وهي الحالة الفضلى، وحالة سوء الخلق. والسيارة سوف تصل الهدف وإن كان قد حدث ما لا ينبغي حدوثه أثناء المسير، وطبيعي أن للخلق السئ دوافع وله آثار ونتائج ولكن على المسافرين أن يتحملوا كل هذا للوصول إلى هدفهم، خلافاً لحركة تلك السيارة التي ينبغي أن توصلك إلى نيشابور لكنها اتجهت نحو مسير آخر فلن تصل هذه السيارة بمسافريها إلى هدفهم وإن كانت الأخلاقية العالية تسودهم، لأن طلاقة الوجه والابتسامة والتعامل الأدبي الرزين والاحترام الوافر لن يغير من اتجاه حركة السيارة، إنما الذي يغير مسيرها ووجهتها هو قيام هؤلاء بوجه قائدها، فهؤلاء مؤدبون رحماء فيما بينهم لكنهم لن يصلوا إلى الهدف. في المثال الأول كان القائد أميناً مخلصاً إماماً من الله، لهذا فهو يوصلهم إلى أهدافهم وإن كانت بعض أعمالهم سيئة، وامام المجموعة الثانية لا يهتدي إلى طريق وليس خبيراً بمسيره وعابد لهواه ورأيه قد ضيع الطريق لعدم وعيه قدم هدفه على أهداف الآخرين، ولهذا فأتباعه لن يصلوا إلى هدفهم وإن كانوا فيما بينهم رحماء مؤدبون، وإن كانت في أعمالها برة تقية، فهم في النتيجة معذبون ولن يصلوا إلى الهدف الذي خلقوا من أجله. وعلى كل حال، فإن المجتمع الذي تحكمه ولاية الطاغوت كالسيارة التي يقودها سائق غير أمين، لن يصل هذا المجتمع إلى هدفه، لهذا لن يكون المجتمع مسلماً خالص الإسلام وهو يعيش في كنف ولاية الطاغوت، ولهذا يرد هذا التساؤل: ما الذي يلزم المسلمين فعله في مثل هذا الوضع؟

وتجيب الآية القرآنية:

{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا}.

والآن أحلل أجزاء هذه الآية:

{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ومستقبلهم وكل طاقاتهم تخاطبهم الملائكة كما يخاطب الطبيب أو الجراح مريضه الذي لا أمل في شفائه: أين كنت وفي أي وضع أنت، مما يدل على أن الوضع الذي وصلوا إليه سئ غاية في السوء. وأنا أشعر أن الملائكة عجبوا من الوضع الهابط الذي وصل إليه هؤلاء ومن حالتهم النفسية المنهارة ومن العذاب الذي ينتظرهم، ولهذا قالوا لهم أين كنتم تعيشون وأي ظلم ألحقتموه بأنفسكم في دنياكم؟! قالوا كنا مستضعفين في الأرض لا نملك إرادتنا. والمستضعفون في المجتمع هم الذين سحقت إرادتهم وشلت فليس لهم إرادة في الخط الاجتماعي المرسوم ولا في المسير في هذا الخط ولا في الوقوف فيه ولا في تصحيح مسارهم، وليس لهم اختيار في أفعالهم فهم يسيرون وفق الخط الذي يرسمه واضعوه ومن غير معرفة بالوجهة التي يتحركون نحوها.

افرضوا طفلاً صغيراً من طلاب المدرسة الابتدائية وليس له من العمر سبع سنوات، فإن عيون أبناء السبع هذه الأيام وآذانهم واعية تتلقى بصورة جيدة ولا يضلون الطريق، بل افرضوه ابن الأربع أو الخمس سنوات كالطفل الذي كان يوضع في الكتاتيب ليتعلم قراءة القرآن. ولا زلت أتذكر أنه عندما نخرج من المكتب على شكل مجموعة لم نكن نعلم أو نفهم إلى أين نذهب، ولكن ثمة مراقب معنا أكبر منّا سناً ويحمل بيده العصا هو الذي يحدد لنا الطريق، فيقول: سيروا في هذا الاتجاه أو

ذاك، ونحن لا نعلم إلى أين ينتهي سيرنا، ولكن بعد ذلك نجد أنفسنا في بيوتنا بشكل يشبه المفاجأة. لو أراد المراقب أن يطوف بأولئك الصغار في الشوارع، فلا أحد منهم يشعر بما يجري، وسيكون له ما يريد.

ومستضعفو الأرض هم أولئك الذي ليس لهم أي تأثير أو رأي في التيارات الاجتماعية وفي المناهج التي تسيّرها، كما أنهم لا يملكون إرادة في حركتهم الاجتماعية، لا يعلمون ماذا يجري، ولماذا يجري، وأين يجري، لا يعلمون أين هم والى أين يسيرون، لا يعلمون نقطة الشروع في حركتهم ولا نقطة الانتهاء، ولا يعرفون من هو الذي يقودهم في هذا التحرك ولا يعرفون كيف يقفون، ولو توقفوا فهم لا يعلمون ماذا يفعلون بعد هذا التوقف، لا يعرفون هذا أساساً ولا يلتفتون إليه ولا يثير انتباههم..

ومن غير أن نشبههم تشبيهاً حقيقياً، نقول أنهم كالحصان الذي شدت عيناه فهو يحسب أنه يمشي في طريق طويل بينما هو يدور ويدور حول نقطة معينة، فلو قدر لهذا الحيوان أن يفهم لأوحى لنفسه أنه قريب من باريس، ولكن عندما يقرب وقت الغروب تفتح العصابة من عينيه ليرى نفسه في ذات المكان الذي كان فيه أول الصبح، فهو لا يدري أين ذهب، ولا يعلم إلى أين يتحرك. وطبيعي أن هذا مثال للمجتمع الذي لا يحكمه نظام عادل، بل يديره نظام لا يؤمن بأي قيمة للإنسان وإرادته وكرامته. لا يأتي هذا الكلام في مجتمع يقوده النبي (ص) حيث يخاطبه القرآن {وشاورهم في الأمر}، فمع أنه نبي ومعصوم لا يحتاج إلى مشورة الناس يأتيه الأمر بأن يشاور المسلمين ليشعرهم بعزتهم وكرامتهم وقيمتهم وشخصيتهم، مثل هذا المجتمع ليس فيه من لا يعي ولا يفهم ما يجري خلافاً للمجتمعات التي يتسلط فيها نظام فردي أو نظام استبدادي ظالم أو نظام جاهلي فإن أكثر أفرادها مستضعفون، وهؤلاء يقولون كنا مستضعفين في الأرض، نُقادُ ولا ندري إلى أين، كانوا يأخذوننا هنا وهناك، لقد جعلونا نرتكب السوء ونفعل القبيح ونحن لا نعلم. هذا هو تبرير المستضعفين، لكن الملائكة يجيبون {قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها} هل ضاقت الأرض عليكم فليس فيها مساحة تسعكم غير البقعة التي كنتم فيها؟! وهل كان كل الناس يسكنون في تلك النقطة التي كنتم تستضعفون فيها؟! ألم تكن أرض الله واسعة حتى تخرجوا من ذلك السجن أحراراً طليقين؟! ألم تكن في هذه الارض الفسيحة نقطة حرة من سلطة الجبارين تذهبون إليها لتعبدوا الله فيها وتصرفوا طاقاتكم بالطريقة الصحيحة وفي المسير الصحيح؟! ألم تكن ثمة نقطة لا يسودها الاستضعاف في كل أنحاء الأرض الواسعة؟! وإجابة الملائكة هذه تنسجم تماماً مع المنطق العقلاني المقبول، وهذا ما يدركه عقل الإنسان، ومن الطبيعي أنه ليس لأولئك إجابة مقبولة، ولهذا يعقب القرآن {فأولئك مأواهم جهنم} بما وهبوا للطاغوت من الطاقات {وساءت مصيرا}. وهناك استثناء من إطلاق الأمر بالهجرة وعمومه حيث لا يمكن للجميع أن يهاجروا وينقذوا أنفسهم من قيود النظام الجاهلي، فهناك العاجزون والطاعنون في السن والأطفال والنساء اللواتي لا يمكنهن القيام بهذا العمل، ولهذا فهذه الطوائف مستثناة.

{إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا} ولا يعرفون نقطة مضيئة يحكمها الإسلام وتسودها عبودية الله {فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم}. لاحظوا جملة التمني وأداتها "عسى" {وكان الله عفواً غفوراً}.

وبعد أن أُلقيت الحجة على المستضعفين بوجوب الهجرة، يدفع القرآن تصور من يتخيل أن الهجرة تسبب الشقاء والحرمان والضرر، ويتسائل في كل حين عن عواقب الهجرة وعن إمكان هذه الهجرة، وعن احتمال وجود منطقة لا يحكمها الطاغوت. من أجل دفع كل هذه التخيلات والتصورات، يقول القرآن الكريم:

{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة}. انظروا كيف يحلق الإنسان في آفاق الأرض وكيف يطوي من مساحات وكيف تنفتح أمامه الآفاق، ونفس هذا الإنسان كان يطمح تحت حاكمية النظام الجاهلي إذا اراد أن يطمع بفكره نحو أعلى وأوسع الآفاق فهو يفكر في سطح السقف الذي يظله، سطح القفص الذي سجنه وحبسه، أما الآن فإن الآفاق الوسيعة الشاسعة منفتحة أمام ناظريه.

ويوم كان المسلم يعيش في مكة في أيام الإسلام الأولى كان أقصى ما يطمح إليه وأوسع الآفاق التي يحلم بها أن يدخل المسجد الحرام ويصلي فيه ركعتين وهو يواجه حدة قريش وشدتها، وما أن ينتهي من صلاته حتى يتلقى الضربات والصفعات..

أما بعد الهجرة إلى الأفق الوسيع والأرض غير المستضعفة، إلى المجتمع الإسلامي الذي يعيش الولاء لله ورسوله فسيرى المهاجر عجباً؛ فالمسلمون {يسارعون في الخيرات}، والآية تحدد ميزان التفاضل بين أفراد المجتمع الإسلامي؛ فالذي

يتحرك في سبيل الله أكثر ويتعبد له ويكدح في سبيله ويجاهد لإعلاء كلمته وينفق على عباده في سبيله هو الأكثر عزة وفضلاً وإيماناً، وفي مجتمع الأمس في مكة كان جزاء إنفاق درهم واحد في سبيل الله، الكي بالنار والتعذيب بالإحراق، ولكن المسلم يجد مراغماً كثيراً وفرصاً عظيمة للعمل الصالح وآفاقاً واسعة يحلق فيها بعد الهجرة في سبيل الله وإليه والوصول إلى المدينة المنورة.

{ومن يهاجر في سبيل الله} ويتوجه نحو المجتمع الإسلامي {يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة}، ومن يخرج مهاجراً من دار الكفر إلى دار الإسلام متخذاً سبيل الله سبيلاً ومنهجه منهجاً ويمت وهو في دار الهجرة، فماذا يكون مصيره؟

والإجابة القرآنية أن أجره على الله لأنه أدى وظيفته ووفى، حيث كانت الحركة والهجرة مسؤوليته وقد أداها، وقدم ما في وسعه من جهد، وهذا ما يريده الإسلام، أن يتحرك الإنسان لله وفي سبيله بمقدار استطاعته وقدرته. {ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً}.

وهذا المبحث لم يتم بعد وبقي على النصف، وهذه المقالة هي آخر بحث الولاية، ولكننا نشير إلى هذه الملاحظة وهي أنه في حالة عدم وجود دار للهجرة، فماذا يعمل الإنسان تجاه مسؤوليته بالانتقال من دار الكفر، والهجرة عن ولاية الطاغوت والشيطان إلى دار ولاية الله والنبي والإمام أو الولي الإلهي؟

وثمة احتمالات: أن يبقى في دار الكفر، أو أن يكفر في تأسيس وبناء دار للهجرة.

وهناك هجرات يبتدأها بعض الناس وتكون نقطة انطلاق لهجرات موسعة، وتصير أساساً لبناء المجتمع الإسلامي، وعندها تبنى دار الهجرة وتبدأ أفواج المؤمنين بالمهاجرة إليها. هذا ما يعود إلى بحث الهجرة.

خلاصة المقالة السادسة

ولاية الطاغوت والشيطان في النظام الجاهلي والطاغوتي تربط المؤمن وتقيده بآلاف القيود والعلاقات بمركز القدرة الطاغوتية وتحاصره في شبكة النظام الجاهلي غير المرئية، فتسلبه حريته وتدفعه من غير اختياره نحو النهاية التي تنتظر ذلك النظام وتمنعه من توظيف طاقاته في سبيل الله، وعلى ضوء المنهج الذي رسمه الإسلام وهذا الواقع الذي لا يقبل التخلف أو الاستثناء يطرح أمامنا مسألة الهجرة. والهجرة هي الفرار من قيود النظام الجاهلي والوصول إلى المحيط الإسلامي الحر الطليق، حيث تقترب كل الدوافع الإنسانية من الأهداف التي يحبها الله، وحيث تسير الحركة الطبيعية للمجتمع نحو التكامل والسمو الفكري والروحي والمادي.

وهناك حيث تنفتح الطرق المشرقة الصالحة، وتنغلق أبواب الشر والسوء، هناك حيث المجتمع الإسلامي، إذن يترتب على أصل الولاية وجوب الهجرة، وتكون الهجرة من المسؤوليات الفورية والضرورية للمؤمنين، وعندها يضع المؤمنون خطاهم في أرض تحكمها ولاية الله.

{ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء} في الكفر{فلا تتخذوا منهم أولياء}

{حتى يهاجروا في سبيل الله} فيخرجون من مساندة الشرك والطاغوت {فإن تولوا} بقوا على تلك المساندة {فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم}

{ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً}[5].

{إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله}

{والذين آووا ونصروا}

{أولئك بعضهم أولياء بعض} تسودهم المحبة والتعاون

{والذين آمنوا ولم يهاجروا}

{ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا}

{وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر} لأنهم تحركوا من أجل دينكم

{إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق}

{والله بما تعملون بصير}

{والذين كفروا بعضهم أولياء بعض}

{ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير}

{والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله}

{والذين آووا ونصروا}

{أولئك هم المؤمنون حقاً}

{لهم مغفرة ورزق كريم}[6].

{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}

{قالوا فيم كنتم}

{قالوا كنا مستضعفين في الأرض}

{قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها}

{فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً} لأنهم ذلوا أنفسهم وفقدوا عزتهم ولم يهاجروا

{إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان}

{لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً}

{فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم}

{وكان الله عفواً غفوراً}

{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة}

{ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله}

{ثم يدركه الموت}

{فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً}[7].

أسئلة المقالة السادسة

1 ـ ماذا تعني الهجرة، وأي علاقة لها ببحثنا، وبأي مسألة ترتبط؟

2 ـ لماذا يلزم الإنسان بالفرار من الطاغوت والشيطان؟

3 ـ هل يمكن أن يعيش المسلم محافظاً على إسلامه في كنف الطاغوت؟

4 ـ ما هي أهم المميزات البارزة لولاية الله، وما الذي تمنحه للمجتمع؟

5 ـ هل تكمن سمة الولاية الإلهية في تحريك الفرد والمجتمع وتوجيه طاقاتهما في المنهج الإسلامي؟

6 ـ من هم المستضعفون؟

7 ـ هل أن الهجرة ضرورية مع وجود دار للهجرة وأخرى للإيمان، وهل أن المؤمنين مكلفون بإيجاد دار للإيمان لو لم تكن ثمة دار للإيمان؟

8 ـ احفظ الآيات 97 ـ 100 من سورة النساء، واشرح خلاصة المقالة السادسة على هدي هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

---

[1] سورة المائدة، الآية: 55.

[2] سورة القصص، الآية: 41.

[3] ـ سورة إبراهيم، الآية: 28.

[4] ـ أصول الكافي ج 1 ، ص 36. كتاب الحجة، باب من دان الله عز وجل بغير إمام من الله جل جلاله.

[5] ـ سورة النساء، الآيتان: 88 ـ 89.

[6] ـ سورة الأنفال، الآيات: 72 ـ 74.

[7] ـ سورة النساء، الآيتان: 99 ـ 100.